محمد سعيد رمضان البوطي

الحب في القرآن

شيخو

ودور الحب في حياة الإنسان

2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

الحب في القرآن

ودور الحب في حياة الإنسان

د. محمد سعيد رمضان البوطي

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٠٨.٠١١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-094-0

التصنيف الموضوعي: ٢١١ (القرآن الكريم وعلومه)

١٧٦ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٩

المحتوى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم المتفضل الوهاب، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه. اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك، واجعل اللهم حبك أحبّ إليّ من الماء البارد للكبد الظمآن.

بين يدي هذا الكتاب

بحثت، فلم أعلم أن في الكتّاب أو الباحثين والمؤلفين من ألّف شيئاً في الحب، كما نقرؤه في كتاب الله.

ونظرت، فوجدت أن الجميع إنما كتبوا في العقائد التي يتضمنها القرآن أو في شرائعه وأحكامه، أو في بلاغته وإعجازه وبيانه، أو في قصصه وأخباره.

ثم استعرضت في ذهني الندوات والمؤتمرات التي حضرتها أو التي سمعت أو قرأت عنها، فلم أعثر على ندوة أو مؤتمر عقد في صقع ما، للبحث في الحب، كما هو في القرآن[١].

هذا، وحديث الحب ملء الأفواه، وديدن الكتّاب والأدباء، ومصدر الإلهام للشعراء، وأنيس المجالس والأسمار، ورابطة ما بين الفلاسفة والعلماء.

---

(١) يبدو أنني كنت متسرعاً في هذا الاستقراء الذي سجلته في الطبعة الأولى، ولقد تبين لي فيما بعد أن مؤتمراً عقد قبل ثلاث سنوات تقريباً في عمّان بالأردن، تحت عنوان «الحب في القرآن» بل تذكرت أنه كان لي اشتراك مباشر في ذلك المؤتمر. ولكن هل ثمة مؤتمر آخر عقد في أي صقع من أصقاعنا العربية بهذا العنوان أو بقريب منه؟ لا أذكر، ولا أريد أن أجزم.

والحب له دوره في الحياة والمجتمعات، وله سلطانه على الأُسَرِ والبيوتات. وله تاريخه الذي لا يبلى، وأيامه التي لا تنسى، ولا تزال العقول تعي وتذكر ضحاياه الكثيرة على مرّ العصور، كم أحيا من موات النفوس، وكم أمات من أرباب القلوب.

الحب الذي هذا شأنه، له وجود كبير في كتاب الله عز وجل. وإنك لتستبين فيه الحالات التي يكون فيها الحب دواء لا بديل له ولا غنى عنه، والحالات التي يكون فيها داء ينبغي الفرار منه.

والقرآن بمقدار ما يستنهض العقول للفكر، يستحث القلوب للحب، وينبه إلى أن إدراك العقول للحق، لا يغني عن توجه القلوب بالحب إليه. ويحذر من أن تتوجه الأفئدة بالحب إلى ما، أَوْ مَنْ ليس أهلاً له.

فكيف يسوغ الإعراض عن هذا الذي يقرره القرآن وينبه إليه؟

ولقد تأملت في سبب إعراض الكاتبين والباحثين عما يقوله القرآن في الحب، فلم أعثر إلا على سبب واحد، هو أن القرآن يوجه القلوب إلى حب ما لا يستهوي النفوس حبه، ويحذرها من حب ما يصعب على النفوس الإعراض عنه والتحرر منه. فكان في التلاقي على هذا الذي يقرره القرآن ويدعو إليه، أو في العكوف على بيانه والتأليف فيه، ما يصعب استنهاض النفوس إلى العمل بمقتضاه. فيقع أكثر الكتاب والباحثين من جراء ذلك في ازدواج وتناقض بين الحديث عما يقرره القرآن ويدعو إليه، وفعل ما تدعو إليه النفوس وتقضي به.

أما دراسة ما يقرره القرآن من أهمية استعمال العقل في التفريق بين الحق والباطل، وفي وضع المناهج والموازين التي تعصم عن الوقوع في الخطأ، وتيسر السبيل إلى معرفة الصواب، فليس في ذلك ما يعوق النفس عن نيل مبتغياتها والتمتع بشهواتها، لأن العقل كان ولا يزال دالاً ولم يكن مجبراً ولا ملجئاً. فليقرر العقل ما يشاء، وليدْعُ القرآن إلى تحكيمه والاهتداء به، فإن العقل لا يتجاوز، في كل الأحوال، حدّ الإشارة أو البيان، أما النفوس والأهواء، فقد كانت ولا تزال هي المتحكمة بأزمّة السلوك وهي التي تقود أصحابها في المراتع التي تشاء.

لذا، فإنك كثيراً ما تجد لقاءات يجتمع المتداعون فيها على دراسة كثير من القضايا الفكرية والقوانين والأبحاث العلمية، ثم إنهم يتفرقون كما كانوا قبل أن يجتمعوا، لا يغير أي منهم من سلوكه شيئاً. أما البحوث التي ألقيت والقرارات التي تم الاتفاق عليها، فهي مجرد غذاء يقدَّم إلى العقل الذي شأنه البحث عن الحقائق. وللسلوك سلطانه الآخر، ودوافعه التي تتسامى في قدراتها على العقل.

❀ ❀ ❀

فهذا ما حملني على كتابة فصول عن حديث القرآن عن الحب: حديث القرآن عن حب الله للإنسان، وحديثه عن حب الإنسان لله، وحديثه عن حب الإنسان لأخيه الإنسان، ثم عن دور الحب في

حياة الإنسان، عندما يكون منضبطاً بنهج القرآن، وعندما يكون شارداً عن ضوابطه.

فإن كان هذا باكورة بحث في هذا الموضوع، فأسأل الله أن يجعل منه إتماماً لنقص، ودفعاً إلى خير. وإن كان ثمة من سبقني إلى الكتابة فيه على النهج السديد، فأسأل الله تعالى أن يجعل منه دعماً للحق الذي سبق بيانه، وتأكيداً للواجب السلوكي الذي تمليه علينا سلامة هذا الذي بينته وانتهيت إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

محمد سعيد رمضان البوطي

أولاً
الحب في القرآن

محبة الله للإنسان

مقدمة

في القرآن آيات كثيرة تتضمن تكريم الله للإنسان، وتعلن عن أمره عز وجل الملائكة بالسجود له، سجود تكريم وتبجيل.

وفي القرآن ما ينص على أن الروح التي أهبطت إلى كيان الإنسان، متمثلاً في شخص أبيه الأول آدم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، منسوبة إلى الله عز وجل.

وفي القرآن ما يؤكد أن الله عز وجل أخضع كثيراً من المكونات لخدمة الإنسان، وسخرها لإنجاز مصالحه، سواء من ذلك ما يتم بجهود يبذلها الإنسان، وما يتم من ذلك بخدمة ذاتية مباشرة، دون حاجة إلى تدخل الإنسان وبذل شيء من جهده.

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤]، وقد علمتَ أنه سجود تكريم وتبجيل، لا سجود عبادة وتعظيم.

ومن ذلك قوله عز وجل خطاباً للملائكة منوهاً بنسبة الروح الإنسانية إليه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩].

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٢-٣٣].

فهذه الآيات وأمثالها، تتضمن بوضوح المكانة المتميزة للإنسان عند الله، ولا ريب أن الذي بوأ الإنسان هذه الرتبة والمزية، وأهّله لها إنما هو الله، بفضل منه لا بمزية ذاتية سعى إليها فنالها.

ثم إن هذه الآيات وأمثالها، تبيّن أن المراد بالإنسان، في كل ما تضمنته من مظاهر التكريم والتمييز له، جنس الإنسان الصادق بكل أفراده وفئاته وأقوامه وجماعاته، أي فهي خِلْعةٌ شرف الله بها الإنسان قبل أن يوجِّهَ إليه التكاليف التي خاطبه بها.

وفي هذا ما يدلّ على أن الحظوة أو المزية التي نالها الإنسان من ربه وتفرد بها، لم تكن ثمرة جهود مارسها هذا المخلوق مما يرضي الله عز وجل، فنال بسببها هذه الرتبة. بل هي حظوة تلقاها هذا الجنس من المخلوقات، من ربه، قبل نشأة الشرائع

والأديان، وقبل أن يتهيأ لبذل الجهود والاستجابة، أو عدم الاستجابة، للأوامر والشرائع.

فإذا تبين لنا ذلك، فلنتساءل: علامَ يدل هذا التكريم بمظاهره وأشكاله المتنوعة؟

ما من ريب في أنه يدل على محبة الله لهذا المخلوق الذي صاغه وسواه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، ثم سخر له معظم المكونات التي من حوله.

والعلاقة بين الحب وآثاره ظاهرة جلية لا يرتاب فيها أحد.

ولعل من الضروري أن تلاحظ هنا ما أركز عليه، من أن بين مظاهر التكريم هذه من الله للإنسان، وحبه له، علاقة الدليل مع المدلول. فهما إذن متغايران ومختلفان. أي فما ينبغي أن يقال إن محبة الله للإنسان ليس شيئاً آخر غير هذا التكريم ذاته.

إن الله عز وجل قرر محبته للإنسان، في مثل قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]، وقرر أيضاً تكريمه للإنسان، في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠] الآية. إذن فلكل منهما معنى مستقل، وما ينبغي أن ننسخ معنى الواحد منهما بالآخر. والترادف في مثل هذا المقام غير وارد، كذلك التأويل غير وارد.

❁ ❁ ❁

ولكن ما هو الحب

لعل أدق تعريف له أن يقال: إنه التعلق بالشيء على وجه الاستئناس بقربه والاستيحاش من بعده.

فهذا هو المعنى الذي نلاحظه في محبة الإنسان للإنسان. ولكن مما لا ريب فيه أن هذا المعنى غير وارد في حق الله، فهو عز وجل لا ينسب إليه الاستئناس ولا الاستيحاش، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولكنَّ تَنَزُّه الله عن ذلك لا يستدعي بالضرورة تأويل الحب الذي أثبته الله عز وجل منه لعباده، بأي معنى من المعاني الأخرى التي تتعلق بالحب علاقة الدليل بالمدلول أو النتيجة بالسبب، كأن يقول أحدنا: إن حب الله للإنسان هو الرضا عنه أو المغفرة له، أو هو عين التكريم الذي أسبغه الله على جنس الإنسان.

إن الذهاب إلى هذا، يجمع بين أمرين كلاهما مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة، أحدهما التأويل من دون موجب، وثانيهما التعطيل الذي يبرأ منه علماء العقيدة والتفسير. ولا شك أن تحميل كلمةٍ في القرآن لمعنى كلمة أخرى فيه، يجمع بين هاتين الآفتين اللتين ننزه كتاب ربنا سبحانه وتعالى منهما.

لعلك تقول: فعرّف لنا محبة الله للإنسان بمعناها الحقيقي مستقلاً عن معاني الرحمة والمغفرة والرضا ونحوها، بعيداً عن كل انتماءات الشبيه والنظير.

وأقول في الجواب: إننا نعرِّف محبة الله للإنسان بالطريقة ذاتها التي نعرّف بها ما قد نسبه إلى ذاته العلية من اليد والعين والاستواء والمجيء والفراغ.. وهي الطريقة التي جنح إليها السلف، فنقول: إن له جل جلاله يداً كما قال، وعيناً كما قال، واستواءً كما قال.. مع تنزيهنا الله تعالى في ذاته وصفاته عن الشبيه والنظير.. فنقول على هذا الغرار: إن لله محبة للإنسان كما قال عن ذاته، لا نقتحم إليها بأي تأويل، ولا نصرفها إلى أي مشابهة أو مقايسة أو أي جامع مشترك بينه جل جلاله وبين مخلوقاته.

❁ ❁ ❁

ولعل في الناس من يقول: إنك تتحدث الآن عن حب الله لجنس الإنسان منذ فجر نشأته، قبل أن توجه إليه التكاليف، وقبل أن تتقاسمه المذاهب والاتجاهات المختلفة: الصاعدة والهابطة، والمستقيمة والمنحرفة. ولكنّا لا نجد في القرآن أي إعلان عن حب الله لهذا الجنس من المخلوقات. إنْ هو إلا الإعلان عن تكريمه وعن نسبة الروح السارية في كيان هذا المخلوق إليه، والإعلان عن أمر الملائكة بالسجود له. فأين هو الإعلان عن حب الله لهذا المخلوق؟

والجواب، أن هذه الأشكال من التكريم إنْ هي إلا نتيجة لشيء، فما هو هذا الشيء؟ محال أن يكون هذا الشيء شيئاً آخر غير الحب.

ولا تقودنك الفلسفة الفارغة إلى القول بأن أفعال الله تعالى لا تنسب إلى أسباب سابقة، وأنَّ أفعاله نتيجة لأقدار مبرمة، وأقداره أزلية قديمة. فقضاء الله بتكريم الإنسان غير مسبوق بسبب دعا أو ساق إليه، كالحب مثلاً.

أقول: لا تقودنك الفلسفة الفارغة إلى هذا التكلف في القول. إذ إن مما يجب أن يعلمه كل مسلم من أوليات العقيدة الإسلامية، أن الأسباب والمسببات يشملها قضاء الله عز وجل، فليس بينهما من حيث الزمان، سابق ولاحق. محبة الله لجنس الإنسان أزلية قديمة، والتكريم الذي كان من نتائج حبه له هو الآخر أزلي قديم، وكلاهما داخل في قضاء الله الذي هو علمه بكل ما سيكون في المستقبل. والترتيب الذي نراه بين الأسباب والمسببات إنما هو ترتيب أزلي لكل منهما في وقت واحد، أي قضى الله في سابق علمه وإرادته أن يكون أحدهما سبباً للآخر. وإنما يظهر الفاصل الزمني بينهما عند الخلق والتنفيذ.

أرأيت إلى الأمطار التي تهمي من السماء، فتخضر الأرض على إثرها، إن ما تراه من الفاصل الزمني بينهما إنما يتحقق ويتجلى في عالم الخلق والتنفيذ. أما في علم الله الأزلي، فكلاهما مقرران في قضائه القديم قدم ذاته، ليس فيما بينهما سابق ولاحق.

فكذلك حب الله للإنسان سبب لتكريمه، قد ترى بينهما ترتيباً في عالم التنجيز والظهور، ولكنهما قديمان قدم الله تعالى في عالم الإرادة والقضاء الربانيين، ليس أحدهما سابقاً على الثاني في الزمن، بل الزمن غير موجود في أقضية الله وأحكامه المبرمة.

مصير محبة الله لجنس الإنسان

قلنا: إن الإنسان من حيث هو جنس، بقطع النظر عن انقسامه إلى أفراد ومذاهب وأقوام، مكرَّم من قبل الله تعالى، وهو دليل على محبة الله له.

ولكن هذا الجنس تَمثَّل، فيما بعد، في أفراد كثيرين توازعتهم مذاهب وأفكار شتى. وسرعان ما تلقوا من الله تعاليم تتعلق بالأكوان والمكون وتعرفهم على أنفسهم عبيداً مملوكين لله عز وجل، وتدعوهم إلى الانضباط بالهدي الذي سيصلهم عن طريق الرسل والأنبياء، وتعدهم بسعادة الدنيا والآخرة إن هم صدّقوا ما يخبرهم به الرسل والأنبياء والتزموا النهج الذي يدعونهم إلى الانضباط به.

فكان فيهم من استجاب فآمن والتزم.. وكان فيهم من أعرض وأنكر واستكبر.. وتلك هي حال الناس، وسيظلون على هذا النحو من الاختلاف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله القائل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩].

فما مصير الحب الذي دعا إلى ذلك التكريم لجنس الإنسان، قبل أن يتكاثر أفراداً وتتوازعهم المذاهب والآراء وتتفرق بهم السبل؟

مصير هذا الحب منوط بالمصير الذي يتخذونه تجاه التكاليف التي شرفهم الله بها والوصايا التي أمرهم بها. فالذين بايعوا الله على الاستجابة للتكاليف التي حملهم إياها، والانضباط بالوصايا والأوامر التي خاطبهم بها، ازدادت محبة الله لهم رسوخاً، وتطور التكريم الذاتي الذي جاءهم ابتداء من عند الله إلى تكريم إضافي آخر نالوه جزاء استجابتهم لأوامره وخضوعهم لتكاليفه. والذين أعرضوا عن التكاليف التي شرفهم الله بها وانحرفوا عن الاستجابة للأوامر والوصايا التي خاطبهم بها، خسروا محبة الله لهم، وعرّضوا أنفسهم لعقاب الله بدلاً من أن يتلقوا مزيداً من التكريم الذي كانوا قد نالوه ابتداء وبمحض التفضل والإحسان من الله عز وجل.

وهذا ما يقرره البيان الإلهي في أكثر من مناسبة، في كتاب الله عز وجل.

من ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣٨-٣٩].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٣-١٢٤].

ومن أبرز ما يعبر عن هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٩٥/ ٤-٦].

❁ ❁ ❁

إذن فمهمة الإنسان في حياته الدنيا هذه، تتلخص في ضرورة العمل على استبقاء الحب الرباني الذي كان من آثاره مظاهر التكريم الكثيرة التي ميزه الله بها. ومن أجلّها أنه فطره - كما قال في محكم تبيانه - بيده، وفي أن يغذي حب الله له وينميه بالانقياد لأوامره والثبات على الصراط الذي ارتضاه له.

فمن نهض، مستعيناً بالله، بهذه المهمة التي شرفه الله بها، وانقاد لأوامره وابتعد عن نواهيه، جهد استطاعته، نال - فوق التكريم الذي حظي به الجنس الإنساني - المزيد من تكريم الله له شخصياً، ودخل في عموم من أخبر البيان الإلهي عن محبة الله لهم، بالإضافة إلى التكريم الذاتي الذي أثبته الله لجنس الإنسان من قبل.

وإنها لخِلْعَةٌ تبعث على الفخار وتملأ الكيان نشوة، أن يقرأ الإنسان الخاضع لأوامر الله وشرعه في القرآن الذي هو كلام الله، البيان الناطق بحب الله له!..

يقرأ ذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢]، ولا شك أنه يعلم نفسه واحداً من التوابين.

ويقرؤه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥]، وفي قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٦]، ويقرؤه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٦١/ ٤]، ويقرؤه في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١] ويقرؤه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

وإن الذي يزيد العبد الخاضع لسلطان الله وأوامره، نشوة وسعادة بهذه الخلعة الآتية هدية من قبل الله عز وجل له، ما يلاحظه لدى تدبره لهذه الآيات، من أن خلعة الحب هذه ليست وقفاً على من تمتعوا بالعصمة من الذنوب، بل هي تشمل كل من زلت قدمه في طريق العصيان، ثم تدارك أمره فتاب وآب إلى الله عز وجل، ومهما هوى في أودية العصيان ثم عاد تائباً إلى الله بصدق، فإنه يدخل في عموم من أخبر الله بحبه لهم.

❁ ❁ ❁

وأعود مرة أخرى فأعبر عن عجبي الشديد، ممن يرى شواهد محبة الله لعباده هؤلاء صريحة قاطعة في هذه الآيات وأمثالها،

ويعلم أنها مرتبة باسقة لم ينلها سوى الإنسان، فيمضي يتكلف أسباب حرمانه من هذه المزية العظمى عن طريق ما يتمحله من السبل إلى تأويل محبة الله لعباده، وصرفها عن معناها الحقيقي إلى معنى الرضا عنهم أو إلى ما أعدّه لهم من المثوبة والأجر، أو إلى المغفرة والعفو!.. وقد علم كل عاقل أن الرضا غير الحب، ولذلك أثنى الله على عباده الصالحين بكل منهما، كما لا يجهل عبد عرف مولاه وخالقه، ودان له بالعبودية والتعظيم، أن الأجر الذي يتلقاه من ربه مفصولاً عن مزية حبه له، لا يساوي عنده شيئاً. بل إن أيقن بمحبة الله له، غاب وقع الشدائد عن كيانه، وذابت الآلام التي تنوشه تحت وطأة ما يستيقنه من محبة الله له، وأصبح كل ما قد يفوته من نعيم الجنة هيناً وجللاً.

على أن استبقاءنا لكلمة الحب هذه بمعناها الحقيقي، لا يستلزم تفسيره بالمعنى الذي يجده الإنسان في نفسه لدى شعوره بحب شيء ما، من الاستئناس بقربه والاستيحاش من بعده، بل نذهب في تفسير هذه الكلمة مذهب السلف في الجمع بين الحقيقة والتنزيه، فنقول: هو يحب عباده الصالحين كما قال دون تشبيه ولا تجسيد ولا تكييف.

❀ ❀ ❀

وهكذا، فإن الإنسان، بهذه المزية التي اختصه الله بها، لا بدّ أن يرحل إلى الله، بعد أن يعيش في دنياه هذه ما قدّر له، بإحدى نتيجتين:

أولاهما: الاحتفاظ بالمكرمة التي اختصه الله بها، فيرقى بذلك إلى درجة أعلى من درجة الملائكة المقربين، وإنها لدرجة المقربين من عباده.

أخراهما: تضييع هذه المكرمة، بالإعراض عن المهمة القدسية التي خلق لأدائها، والاستغراق في المنسيات والملهيات التي ابتلي بها، فيهوي بذلك إلى ما هو أحط من دركات الحيوانات العجماوات ووحوش الأودية والغابات.

فالذين آلوا إلى الله بهذه النتيجة الثانية، هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٩٥/ ٥].

وهم المعنيون أيضاً بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

وهذه المزية التي أكرم الله بها الإنسان، تشبه في المآل الذي لا بدّ أن ينتهي إليه، مزية أخرى اختصه الله بها، وهي الفطرة الإيمانية التي استودعها الله في كيان كل إنسان منذ ولادته. مصداقها قول الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠].

فالإنسان لا بدّ أن يؤول أمره مع هذه الفطرة أيضاً إلى إحدى نتيجتين:

إحداهما: رعايته لهذه الفطرة الإيمانية التي متعه الله بها منذ نشأته، عن طريق تغذيته لها بالتأمل والدلائل العلمية والبراهين الكونية، وحمايته لها بسياج العاطفة ومشاعر الحب والمهابة والتعظيم، فيؤول إلى الله بفطرة كسيت ثوب الانقياد لأوامره والخضوع لحكمه والتذلل لسلطانه.

أخراهما: إهماله لهذه الفطرة، وإعراضه عنها، والانشغال بتغذية ما ابتلي به من الرعونات والأهواء والرغائب الغريزية، فيؤول إلى الله بفطرة مختنقة من كثرة ما أحيط بها وهيمن عليها من حوافز الرعونات والشهوات والحظوظ النفسية الجانحة.

وعن كل من هاتين العاقبتين يتحدث البيان الإلهي ببلاغة موجزة جامعة، لا ترقى إليها قدرات الإنسان أياً كان شأنه ومهما بلغ مستواه إذ يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠]

أي قد أفلح من رعى فطرته الإيمانية المودعة لديه بغذاء التربية والعبادة وسُقيا العبودية، وقد خاب، أي خسر، من دفنها تحت ركام الأهواء الجانحة والغرائز العاتية، وحرمها من غذائها الإيماني الذي تنتعش به.

إذن، هما مزيتان خصّ الله بهما الإنسان: إحداهما التكريم المنبئ عن الحب، والمصاحب لفجر نشأته، أخراهما الفطرة الإيمانية المودعة من قبل الله في عمق كيانه منذ فجر نشأته أيضاً.

فيا فوز من أمضى حياته محافظاً على هاتين المكرمتين بالرعاية والتربية ورَفَد كل منهما بالغذاء الذي يتطلب.

ويا خسارة، بل يا شقاء من أمضى حياته معرضاً عن هاتين المكرمتين، غير ملتفت إلى قيمة كل منهما وعظيم شأنهما في حياته، ثم راح ينسج على كل منهما خيوطاً من عناكب رعوناته وأهوائه وشهواته الغريزية الجانحة.

❀ ❀ ❀

حصيلة ما قلناه أننا نقرأ في كتاب الله ما يدل على جنس الإنسان، من حيث هو كلي، بقطع النظر عن جزئياته وأفراده، محظي بحب متميز له، دلت عليه مظاهر التكريم التي حباه الله بها.

كما نقرأ في كتابه ما يدلّ على أن جزئيات الجنس الإنساني، متمثلة في الأفراد الذين تكاثروا وملؤوا رحاب هذه الأرض، وجدوا أنفسهم أمام فرصة سانحة لنيل حب كسبي آخر من الله عز وجل، إن هم سلكوا السبيل إليه.

كان ذلك بعد أن خاطبهم الله بالتكاليف التي شرفهم بها، والخلافة التي أنهضهم للقيام بمسؤولياتها. فمن قام بإنجاز تلك التكاليف، ونهض بالوظائف التي أنهضه الله لأدائها، نال حظاً وافراً من هذا الحب الثاني الذي نسميه الحب الكسبي لأنه متوقف على كسب أسبابه. ومن أعرض عن شرف تلك التكاليف وتجاهل

الوظائف التي استخلفه الله لأدائها، خسر الحب الأول الذي شمله مع من شملهم من أفراد الجنس الإنساني، وخسر الحب الكسبي الثاني إذ بعد عن أسباب اكتسابه.

وإنه ليطوف بذهن أحدنا السؤال التالي:

أفيتأتى للإنسان المسلم منا أن يعلم أنه ممن نال شرف هذا الحب الكسبي، فيجزم بأن الله يحبه؟ وما العلامات الدالة على ذلك.

والجواب: نعم يتأتى للإنسان هذا، بل ما من مسلم صادق في إسلامه إلّا وله حظ من هذا الحب الكسبي الوافد إليه من الله تعالى؛ إذ إن الهداية التي أكرمه الله بها إلى الإسلام، دليل على أن له حظاً - قلّ أو كثر - من محبة الله له.

ثم إن مؤشرات حب الله له، تزداد صعوداً، كلما ازداد تحققاً بإيمانه وسيراً نحو أداء حقوق عبوديته لله عز وجل، من تطبيق أوامره والابتعاد عن نواهيه، والإكثار من مراقبته وذكره.

دلّ على ذلك قوله جل جلاله في الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله عن ربه، «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»[١].

---

(١) هو جزء من حديث قدسي رواه البخاري من حديث أبي هريرة. وأوله: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب.

ولعلك تسأل: فلماذا كان الإقبال إلى النوافل هو مصدر حب الله للمتنفل، مع أن الفرائض أهم منها ولعل الأجر عليها أوفر؟

والجواب: أن الحامل على أداء الفرائض كثيراً ما يكون الخوفَ من العقاب المترتب على تركها. أما الحامل على فعل النوافل والاستزادة منها، فما ينبغي أن يكون الخوفَ من العقاب، إذ إن ترك النوافل لا يستلزم العقاب، وإنما هو التقرب بها إلى الله، ونيل المزيد من حبه، فكان له من قصده هذا ما أراد.

فما المانع إذن من أن يعلم المستزيد من النوافل، يتقرب بها إلى الله، أنه سبحانه وتعالى يحبه؟.. بل ما المانع من أن يُزهى وينتشي بما يعلمه من هذا الحب؟

وقد رووا أن امرأة صالحة كانت تخدم أسرة في دار، وكان لها حظ من الصلاة في جوف الليل، فسمعها سيدها تخاطب الله في سجودها قائلة: اللهم إني أسألك بحبك لي أن تكرمني بمزيد من التقوى.. إلى آخر ما كانت تخاطب الله به.

فلما انتهت من صلاتها، قال لها سيدها: من أين لك أن الله يحبك؟!.. هلا قلت له: اللهم إني أسألك بحبي لك؟ فقالت له: يا سيدي، لولا حبه لي ما أيقظني في هذه الساعة، ولولا حبه لي ما أوقفني بين يديه، ولولا حبه لي ما أنطقني بهذه النجوى.

أقول: إن أقلّ ما يحق لنا أن نزهى به من نعمة حب الله لنا، الإسلام الذي أكرمنا به، فلولا قدرٌ من الحب نالنا منه عز وجل، لما متعنا بنعمة الإيمان به والإسلام لشرائعه. وإنا لنسأله من فضله المزيد.

محبة الإنسان لله

كما رأينا في القرآن آيات يؤكد فيها البيان الإلهي محبة الله للإنسان، بنوعيها القديم الذاتي، والكسبي العارض، بوسعنا أن نرى هنا آيات يؤكد فيها البيان الإلهي محبة الإنسان لله بنوعيها أيضاً: القديم الكامن في طوايا الروح، والعارض الآتي من التوجهات القلبية والالتزامات السلوكية.

وها أنا ذا أصطحبك في بيان كل من هذين النوعين بشيء من التفصيل، وبالقدر الذي يفتح الله علينا به.

حديث القرآن عن الحب القديم من الإنسان لله

وهو ذلك الحب المتغلغل في طوايا الروح الإنسانية، لله عز وجل، قبل أن تتوازعها الأجساد. وهو الحب المنبثق من نسبة هذه الروح إلى بارئها عز وجل. هي نسبة تتسامى على تصور التجزئة والاتصال والانفصال، وتتنزه عن مقاييس كل من القرب المكاني وبُعْدِه. وحسبك أن مضمونها العلمي كامن ومستقر في علم الله عز وجل. ورب حقائق علمية مطوية في تضاعيف هذا الكون مضنون بها على غير أهلها.

إنه ذلك الحب الذي أنبأ عن دلائله ومصدره قول الله عز وجل، منبئاً عن حوارٍ حلوٍ رائع، واجَهَ الله به الروح الإنسانية إذ كانت حقيقة كلية واحدة، لم تنفصل بعدُ عن عالمها العلوي، وإنما كانت في طريقها إلى هذه الرحلة التي أعدّها الله لها. إنه قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢].

لعلك تقول: أين حديث الحب في هذه الآية؟

والجواب أن الحب ينبثق من مكنون هذا الخطاب الرباني للروح، ألا فلتعلم أن كل ما تعانيه الروح الإنسانية اليوم من حنين وأشواق، وكل ما يستبدّ بها من مشاعر النشوة والشجو، عندما تهبّ من حولها رياحه، إنما هو من ذكرى ذلك الخطاب الذي توجه به إليها خالقها عز وجل، يوم لم تكن محجوبة عنه بعدُ، داخل هياكل الأجساد.

وما ظنك بخطاب يتجه به الله كما يشاء إلى جنس الروح الإنسانية، فتستوعبه كما يشاء، ما ظنك بما يحدثه هذا الخطاب إذ تتلقاه الروح مباشرة من بارئها وخالقها عز وجل، بل ما ظنك بما يحدثه هذا السؤال التقريري الموجه من الله إلى الروح التي ستغدو فيما بعد أرواحاً متناثرة في أجساد هذه الخليقة من عباد الله؛ ما ظنك بما يحدثه هذا السؤال التقريري الحلو: ألست بربكم؟..

ومن غريب الاستشكال الذي يوجهه بعضهم إلى هذا الإخبار، بل الإعلان الذي أنبأ عنه بيان الله عز وجل، وهو الخطاب الذي وجهه عز وجل إلى الأرواح إذ كانت روحاً كلية واحدة لم تتحول بعد إلى جزئيات متناثرة في الأجساد، قول أحدهم: ولكن ها نحن أولاء نستثير الذاكرة جيداً، ونستعيد النظر فيما حوته خزانة الحوادث والأقوال والأصوات التي تصاحب مراحل حياتنا كلها، فلا نذكر أن خطاباً طرق أسماعنا ووعته قلوبنا، من هذا الذي تقولون وتصفون.

والجواب أن هؤلاء يستثيرون آذانهم، ويفتشون داخل خزانة المخيلة الكامنة داخل رؤوسهم، بحثاً عن ذكرى أو أصداء أو ذبذبات ذلك الخطاب الرباني القديم. أي إنهم يسائلون هياكلهم الجسدية عما قد تعرفه أو تذكره، من ذلك الخطاب!.. وإنه لتساؤل عجيب، وإنه لمن الغباء بمكان!..

ألا، فليعلم هؤلاء الناس، أن ذلك كان خطاباً من الله مباشرة إلى الروح الإنسانية مباشرة، دون وساطة آذان أو طبلة صماخية، وقبل وجود الخزانات المدركة والمصورة والمتخيلة في الرأس.

فإن جاء من يقول: فلماذا لا تحدثنا أرواحنا مباشرة، عن مكنون ذلك الخطاب، ولماذا لا تضعنا أمام ذكراه؟ وهل لنا من ذاكرة إلا ذاكرة الروح التي هي مبعث حياتنا؟ أم لعل الروح نسيت ذلك الخطاب لطول العهد، ومن ثم فإنا مهما حاولنا فلن نقع من هذا الخطاب الذي نتحدث عنه أو يتحدث عنه القرآن على شيء؟..

فالجواب: أن الروح تظل تحدثك عن ذلك الخطاب والأثر الذي تركه فيها، والحنين الذي يستبد بها على أعقابه ومنذ ذلك العهد.. ألا تشعر داخل كيانك بين الحين والآخر بالشوق إلى المجهول؟ ألا تشعر بالحنين إلى شيء ما بعيد عنك؟ ألا تشعر بالرغبة في التذلل لكائن ما، تبحث عنه في كوامن احتياجاتك وضعفك وتستكشفه في كل ما يتراءى لك أنه قوي وملجأ في عالم الأكوان؟

إنّ ذلك كله ليس إلا من حديث الروح لك، تنبئك من خلاله عن معاناتها وتستعيد لك من ذكرياتها، وتحدثك عن ماضي نشوتها وعن ليالي أنسها وعهود تغريدها..

بل دعني ألفت نظرك إلى شيء تاه كثير من الباحثين في سرّه ومصدره، ألا وهو الشجو أو الطرب الروحي[1] الذي ينبعث في كيانك لدى الإصغاء إلى ألحان ترتلها أصوات متناسقة عذبة، تزجك في مزيج من مشاعر الشوق والحنين والفرح والحزن.. لا تدري من أين جاءت، ولا تعلم إلى أين تتجه.

ما مصدر هذا الشجو، الذي نسميه (الطرب)، إذ يهيمن على الروح في تلك الأحوال؟

إنه يقظة الروح إلى ذلك العهد القديم، عهد الخطاب الرباني القائل: ألستُ بربكم، وإن الروح لتظل في حنين إلى ذلك العهد،

---

(١) أقول: الطرب الروحي، احترازاً عن الإيقاعات التي تستثير في النفس غرائزها وتهيج الرغائب الحيوانية الجامحة. فمن المعلوم أن تلك الإيقاعات، على اختلافها، لا حظ للأرواح فيها قط.

وتأثر من ذلك الخطاب، وإن الشجن يظل يستبدّ بها شوقاً إلى ذلك العهد القديم وإلى ذلك العالم العلوي الذي أهبطت منه. غير أنها لم تجد في اللغة وألفاظها، ما يترجم مشاعر حنينها وأشواقها، لما هو معروف من ضيق اللغة وعجز ألفاظها عن استيعاب مشاعر الروح. فلما سرت إليها تلك الألحان المنبعثة من أصوات شجية عذبة، والمعبّرة عادة عما عجزت اللغة عن ترجمته والتعبير عنه، لامست عمق المشاعر المهيمنة عليها، وصافحت كل ما هو مخزون لديها من الشوق والحنين وبرحاء ذكريات العهد القديم. فهبت من جرّاء ذلك رياح نشوة عاتية انبعثت من قدرة تلك الأنغام والألحان على التعبير عن مكنون مشاعرها، وعلى ترجمة حنينها وأشواقها، في حين أن اللغة - بكل وسائلها البيانية - لم تستطع أن تصل إلى شيء من وهج مشاعرها الممضَّة فتعبر عنها.

فتلك هي حقيقة الطرب الذي تتأثر به الروح.

غير أن في الناس من يقول: إننا نقرّ بأن الطرب يأتي من قدرة الألحان (إذ تنبعث من أصوات عذبة متناسقة) على الوصول إلى شغاف المشاعر الروحية والقدرة على ترجمتها والتعبير عنها. غير أنا لا نسلم بأن أشواق الروح إنما هي إلى هذا الذي تسميه العهد القديم، بل هي في الراجح إلى علاقات مع أشخاص أو أشكال أو أماكن وديار، تمكنت فانبعثت منها مشاعر الحب، وربما تجرعته ابتعاداً وسهداً ولم تذقه وصالاً ورحيقاً. فتكون الألحان التي يسمعها صاحب تلك الروح، مبعث شجو ومثار نشوة لما يشعر به

من التوافق بين طبيعة تلك الألحان والأشجان المتجمعة في طوايا روحه.

والجواب أن هذا هو الظاهر الذي يبدو للإنسان، ومن ثم فهو القرار الذي يتخذه كثير من الباحثين، لا سيما من ذوي النظرة المادية أو السطحية الباحثة في عالم ما وراء المادة.

غير أن الحقيقة شيء آخر، يكمن وراء هذا الظاهر الذي يبدو لنا جميعاً، ويقف عنده ثم لا يتجاوزه كثير من المفكرين.

والخوض في بيان هذه الحقيقة يحوجنا إلى بعض التفصيل؛ فنقول والله المستعان:

إن روح الإنسان، أياً كان، إنما تهفو إلى محبوب وجميل واحد لا ثاني له هو الله. ذلك لأن نسب ما بينها وبين الله قائم ومستمر، وهيهات أن نعلم لذلك أي كيفية أو تحليل، أما الصور والأشكال ومظاهر الجمال المبثوثة في رحاب هذه الدنيا، فهي غريبة عنها، وإنها - أي تلك المظاهر والأشكال - لَطارئةٌ عليها، بعيدةٌ عن متطلباتها ومطمح آمالها.

ولكن الذي يحجب الإنسان عن هذه المشاعر العلوية التي تنزع إليها الروح في اشتياق وحنين دائم، هو هذه الغرائز الحيوانية التي شاء الله أن يبتلي الإنسان بها، والتي تظل نزاعة إلى رعوناتها باحثة عن مشتهياتها في عالمها الأرضي الذي تركن إليه.

وإن من شأن هذه الغريزة الحيوانية - إن لم تتلق التربية الكافية - أن تصادر أشواق الروح وحنينها إلى العالم العلوي الذي أهبطت منه، وأن تترجمها لحسابها.

فالروح تحنّ متشوقة إلى الجمال العلوي الخالد، ولكن الغريزة الحيوانية في الإنسان تقف بها على صور الجمال الدنيوي الفاني، وتسدّ الطريق المتجه بالروح صعداً إلى سدّة الجمال العلوي.

والروح تبحث عن العظيم الأوحد الذي ما زالت تعرفه منذ عهدها القديم، ولكن الغريزة الحيوانية تصادر مشاعر الروح لحسابها، وتضعها أمام هياكل العظماء المزيفين.

والروح تنشد المحسن الأوحد الذي لا ثاني له ولا تعرف سواه، ولكن الأهواء والغرائز الحيوانية تضعها أمام صور وأشكال للمحسنين الزائفين.

ولا بدّ أن يقوم من جراء هذا الذي بينته لك، صراع بين الروح النزاعة إلى العالم العلوي، والغرائز الحيوانية الهابطة إلى العالم الترابي.

فإن لم تصادف الغرائزُ الحيوانية تربيةً دائمة تلاحقها بالتزكية فلا بدَّ أن تكون الغلبة للغرائز على الروح في هذا الصراع.

ومن آثار هذا التغلب أن الإنسان لا يشعر عندئذ بشيء من تطلعات الروح وأشواقها، وإنما يشعر بما تمليه عليه غرائزه من متطلباتها وأهوائها؛ فتراه مأخوذاً بالصور والأشكال، واقفاً عندها،

متوهماً أن إليها حنين روحه، مع أن الروح مغلوب على أمرها، ضائع صوتها وسط ضجيج الأهواء والرعونات الغريزية وأشواقها الأرضية الهابطة.

ولكن إن استطاع الإنسان، لحسن الحظ، أن يأخذ نفسه بالتزكية التي دعا إليها كتاب الله، ويجعل منها دواء يثابر عليه، (وملاك هذا الدواء يتمثل في الإكثار من ذكر الله ومراقبته) فإن ذلك يكون خير غذاء لتقوية الروح، وأفضل وسيلة للحد من طموحات الغرائز وأهوائها.

ومع الأيام تزداد الروح انتعاشاً بذكر الله، وتتراجع ضراوة الغرائز، ويخمد مع الزمن أوارها. فتتغلب الروح أخيراً في حلبة هذا الصراع، وتتحرر من أسر الغرائز الحيوانية، التي كانت تحبسها عند صور الجمال الزائف وأشكاله المتنوعة، والتي كانت تقيدها ضمن عالم الأسباب الوهمية التي تحجب عن رؤية مسبب الأسباب كلها.

وعندئذ تتجاوز الروح بصاحبها صور الجمال الزائف لتنتهي به إلى المعين، إلى معين الجمال، إلى الجميل الأوحد وهو الله. حيث يمنحه هناك كامل حبه وصادق حنينه وشوقه.. وعندئذ تتجاوز الروح بصاحبها صور الإحسان الصادر من المحسنين فيما كان يتوهم، لتوصله إلى المحسن الحقيقي الأوحد، ألا وهو الله عز وجل، فيمنحه وحده ولاءه وتعظيمه.

إذن نعود لنؤكد أن حنين الروح إنما هو لعالمها العلوي الذي أهبطت منه، وأن شوقها المستعر إنما هو لذلك العهد القديم

الذي سجلته ذكرى خطاب الله للأرواح، وإنما اختلطت على الإنسان مشاعر الروح هذه بضجيج غرائزه الحيوانية، في مرحلة هياج تلك الغرائز، وبسبب عدَم إخضاعه لها لمنهاج دائم من التربية والتزكية.

ولقد أكد العلماء هذه الحقيقة، وأعادوها إلى مصدرها الذي أنبأنا عنه بيان الله عز وجل، ملخَّصاً في الآية التي سبق أن افتتحنا بها هذا الفصل الثاني. ومن أبرز من فصل القول في بيان هذه الحقيقة أبو عليّ ابن سينا[١]، فقد صوّر حالة الروح بعد انفصالها عن العالم العلوي في قصيدة له تصويراً علمياً دقيقاً مؤثراً، وها أنا ذا أعرض لك معظم أبيات قصيدته هذه:

هبطت إليك من المكان الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارفٍ
وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كرهٍ إليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

أنفت وما ألفت فلما واصلت
ألفت مجاورة الخراب البلقع

(١) أبو علي ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ) الموافق لعام (٩٨٠ - ١٠٣٧م).

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلاً بفراقها لم تقنع

تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى
بمدامع تهمي ولما تقلع

حتى إذا قرب الرجوع إلى الحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

أخذت تغرّد فوق ذروة شاهق
والعلم يرفع كل من لم يرفع

قد كان أهبطها الإله لحكمة
خفيت عن الفَطِن اللبيب الألمع

فتلك هي حقيقة الحب القديم من الإنسان لله عز وجل، وهذا هو مصدره، ولن يحجبَ الإنسانَ عن شعوره بهذا الحب، إلا ضجيجُ أهوائه وهياج غرائزه. وإنما يُسكِتُ ضجيجَ تلك وهياجَ هذه، ما سماه الله تعالى «التزكية»؛ فمن أخذ نفسه بها من دون انقطاع، تجلّت أمامه لواعج الروح صافية عن شوائب غرائزه وأهوائه. ولا بدّ أن ينقاد، شيئاً فشيئاً لرغائب روحه، عن طريق الإكثار من مراقبة الله وذكره، والدوام على العبادات والبعد عن المحرمات.

وعندئذ ينبثق الحب الكسبي الجديد عن الحب الروحاني القديم، ثم يزداد هذا الحب الكسبي مع زيادة الإقبال على التزكية،

والدوام على مراقبة الله، وربط النعم الواردة إليه بالمنعم المتفضل جلَّ جلاله.

على أن الغرائز الحيوانية تبقى موجودة داخل النفس، وتظل متجهة إلى رغائبها، ولكن في اعتدال وبعيداً عن التشويش على حديث الروح ونهجه والقصد المقبل إليه.

فهذا هو إذن مصداق حديث القرآن عن الحب القديم من الإنسان لله.

حديث القرآن عن الحبّ الكسبي من الإنسان لله

وهو الحب الذي يتنامى لله عز وجل، مع سلوك الإنسان واستجابته لرغائب الروح، ومع زيادة الإقبال على ذكر الله ومراقبته.

فمن حديث القرآن عن هذا الحب الكسبي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥].

ومنه قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١].

ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

ولكن ما المعنى المراد بحب الإنسان لله؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يحب ربه؟

في الناس من يذهبون إلى أن الحب بمعناه الحقيقي إنما يكون بين المتجانسين من الأنداد. فالإنسان إنما يتجه بالحب إلى إنسان مثله، أو أي شيء مما تدركه الحواسّ التي يتمتع بها الإنسان؛ كأن

يعجب منه بالشكل الذي يراه، أو بالصوت الذي يسري إلى أذنه، أو بالرائحة الزكية التي تفوح من حوله وتسري إلى أنفه. ذلك لأن صلة ما بين المحب والمحبوب ليست إلا العين التي ترى أو الأذن التي تسمع أو الأنف الذي يشم أو الفم الذي يتذوق. ومن المعلوم أن الله عز وجل لا سبيل لشيء من هذه الحواس إلى الإحساس به، ومن ثم فإن سبيل الحب من الإنسان لله تعالى مسدود بل مقطوع.

هذا ما يقوله بعض الناس، وهو ما يحملهم على أن يؤولوا حب الإنسان لربه، حيثما ورد في كتاب الله أو على لسان رسول الله ﷺ، باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه.

وأقول إن إخراج الحب هنا عن معناه الحقيقي، وتأويله بالطاعة والاتباع، يجعل المنافقين في مقدمة من يحبون الله ورسوله، إذ إنهم، أو أكثرهم، يطيعون الله باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه، بل ربما بالغوا في ذلك، لأنهم يجعلون طاعتهم الظاهرة غطاء لكفرهم الباطن.

ورب رجل يطيع الله ويحاذر الوقوع في المحرمات، بسائق من مجرد الخوف من عذابه، بحيث لو علم أن الله سيغفر له ذنوبه يوم القيامة، لم يحمل نفسه على اتباع الأوامر ولا على ترك المعاصي. فطاعة لله إذن ليست من مستلزمات حبه له عز وجل.

فالحق أن تأويل محبة الإنسان لربه بمعنى الطاعة والاتباع تمحّل والتزام لما لا يلزم، على أننا نقول: إن ثبوت محبة العبد لربه يستلزم طاعته له في الجملة، ولكن العكس ليس بصحيح، أي إن

طاعة العبد ربه لا تستلزم حبه له، فبين طاعة الله ومحبته عموم وخصوص مطلق.

ثم إننا نقول: إن الذهاب إلى أن نوافذ الحب ما بين المحب والمحبوب محصورة في الحواس الخمس، باطل من الرأي والقول. فالبصيرة الباطنة في الإنسان أقوى إدراكاً وتأثراً من بصره الظاهر. والقلب أدق دراية من العين فيما يُرى، ومن الأذن فيما يُسمع، ومن الأنف فيما يُشم. ومن ثم فإن جمال المعاني المدركة بالعقل كثيراً ما يَكون أشدّ تأثيراً على الإنسان من جمال الصور الظاهرة للأعين، ومن جمال الأصوات الظاهرة للآذان. فلا يُنِكر إذن المعنى الحقيقي لحب الإنسان لربه عز وجل، إلا من قعد به القصور عن الإدراك إلى مستوى البهائم، فلم يتجاوز حدود ما تدركه الحواس.

كثيرون هم الذين عشقوا عظماء من الناس، أو من خيل إليهم أنهم عظماء، سمعوا بهم ولم يروهم، ولكن بصائرهم تلقت صفات معنوية لهم بهرتها وأورثتها من الحب والتعظيم، ما لا تستطيع الأبصار أن تعود بمثله.

وإني لأعلم أن في الناس من قد هيمن عليهم حب الجاحظ لما رأوه من رشاقة بيانه وخفة روحه، وسعة علمه، وهم لو رأوه لما وقعت أبصارهم منه إلا على أقبح صورة.

إذن فالجمال له مقاييس معنوية يدركها العقل، كما أن له مقاييس حسية تلتقطها الحواس، ومن خلال هذا الشمول صح أن

يوصف الله بالجميل. وصدق رسول الله القائل: «إن الله جميل يحب الجمال»[١].

والجمال محبوب بكل معانيه وأنواعه الحسية والمعنوية. على أن جمال الله حوى أنواعه كلها. ذلك لأن جمال الأشكال والزهور والرياحين ليس في الحقيقة إلا جمال الله عز وجل، إذ هو مبدعه وهو منشئه. وإن الناظر إلى صور الجمال وأشكاله الكثيرة، إذا جمع في النظر إليها بين رؤية العين وتأمل الفكر، لا بدّ أن يرحل بفكره عن الصور المرئية أمام عينيه، إلى مشاهدة المكون والمبدع، فعيناه تزيغان في الصور والأشكال، وفكره غائب عنها مستغرق في مشاهدة الجميل الذي أبدعها وصورها كما يشاء.

إذن فحتى الحواس البشرية لها نصيب من رؤية جمال الله عز وجل. ولا ريب أن من أحب الله أحبه ببصره الذي في وجهه، وببصيرته التي في قلبه، أما البصر فمأخوذ بجمال صنعه الذي هو فيض من جماله، وأما البصيرة فمأخوذة بكماله وعظيم صفاته.

على أنا قد علمنا أن الجمال ليس وحده السبب الباعث على الحب، بل الإحسان هو الآخر واحد من أهم أسبابه، وصدق من قال: جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وعظمة الذات والصفات هي الأخرى من أهم أسباب الحب. وهل في الكون كله إلا محسن واحد، تصدر منه النعم والآلاء كلها؟ وهل في الكون

---

(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

كله إلا عظيم واحد تفرعت عن عظمته أشكال العظمة كلها؟ وهل في الدنيا عاقل يجهل أنه الله عز وجل؟

نصل من هذا إلى الحقيقة التي لا ريب فيها، وهي أن الذي يستحق الحب بمعناه الحقيقي إنما هو الله وحده، لأن أسباب الحب مجتمعة بالمعنى الحقيقي فيه وحده، فهو الجميل الذي انعكس جماله وظهر في الصور والأشكال التي يتراءى لنا فيها معنى الجمال، وهو المحسن الذي تفرقت مظاهر إحسانه في أنواع الوسائل والأسباب، وهي كلها من صنعه وتدبيره، وهو العظيم الأوحد الذي دانت لعظمته سائر القدرات وخوارق الطاقات، طوعاً أو كرهاً، كما قال الله عز وجل.

فما هي الطريقة الكسبية إلى هذا الحب

لقد علمنا الآن الفرق بين الحب القديم من الإنسان لله، والحب الكسبي الذي ينمو داخل كيان الإنسان لله تعالى عن طريق الكسب. وقد علمنا أن القرآن يتكلم على كل منهما: يتحدث عن الحب القديم الأول بأسلوب الإخبار والتقرير، ويتحدث عن الحب الكسبي بأسلوب الدعوة والتوجيه، كما قد رأينا في استعراضنا لجملة من الآيات التي تتضمن الحديث عن هذا الحب الكسبي.

وقد آن لنا الآن أن نسأل: فما الطريقة الكسبية التي تنمي محبة الإنسان لله، بحيث تتغلب على محبة الإنسان لمشتهياته وأهوائه؟

السبيل الأول لذلك يتمثل في الإكثار من مراقبة الله وذكره، وخير أداة لذلك، استنهاض الفكر لربط النعم بالمصدر الذي جاءت منه، وهو الله عز وجل.

إن المؤمن بالله لا يكاد يأخذ نفسه بهذا النوع من مراقبة الله وذكره مدة من الزمن، حتى تهتاج بين جوانحه عوامل الحب لهذا الإله المتفضل المنعم.

ربط النعم بالإله المنعم، هو الوسيلة الأولى لتوهج القلب بوقود المحبة لله، وإنها لَلْوسيلة التي دلنا عليها رسول الله ﷺ عندما قال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه..»[(١)]

إذا جلست إلى مائدة الطعام اذكر أن كل الألوان الشهية التي أمامك، إنْ هي إلا خلاصة سماء أمطرت، وأرض أنبتت، وأنعام سخرها الله لك لحوماً وألباناً. فهل غير الله سخر لك ذلك؟ وإذا دخلت الحمام اذكر أن الذي قضى بتصفية جسمك من سمومه القتالة، كلما تجمعت وأصدرت إليك إشارات الخطر إنما هو الله عز وجل. واذكر إذا وقفت أمام المغسلة بعد خروجك من الحمام أن هذه المادة العجيبة التي نسميها الماء، والتي تحققت فيها وحدها شروط الطهارة والتنظيف إنما متعك بها الله، ولو حُرِمتَها ثلاثة أيام متواليات لكرهت نفسك ولضجرت من قذارتك.. ثم اذكر إذا خرجت وأخذت عدّتك للكدح والعمل أن الذي أمدّك بالقوة ومتعك بالعافية، ووقاك بما يسمونه (المناعة) من الجراثيم التي تفيض بها الأجواء التي من حولك، إنما هو هذا الإله ذاته.. ثم اذكر إذا عدت مكدوداً إلى دارك في المساء، وتمددت على فراشك تنتظر نعمة الرقاد، أن الذي يبعث في كيانك هذه النعمة العجيبة، إنما هو الله، ولو حرمك منها يومين لتشنجت منك الأعصاب، ولضجر الفكر، ولاختلط منك الوعي، ولصرت على حافة الجنون.. فإذا استيقظت، بعد أن أخذ الجسم غذاءه الكافي من نعمة الرقاد،

(١) رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك.

ورأيت أنك قد عدت إلى حيويتك ونشاطك، فاذكر أن الذي أحياك بعد ما أماتك تلك الموتة الصغرى إنما هو الله عز وجل.

إن مما لا ريب فيه أن كل من أخذ نفسه بهذه المراقبة التي تتمثل في ربط النعم دائماً بالمنعم، لا بدّ أن يتحول قلبه إلى وعاء لمحبة هذا الإله المتفضل المنعم المحسن، ولا بدّ أن تشتد هذه المحبة وتهيمن على مجامع النفس إلى أن تتغلب على محبة سائر الأغيار.

أما السبيل الثاني فهو أن يحرص الإنسان جهد استطاعته، على الابتعاد عن أكل الحرام.. وأنواع الحرام، وأنواع السبل إليها كثيرة، ولا مجال في هذا الصدد لتفصيل القول فيها، إن البعض من هذا المال الحرام يسري إلى الفم أكلاً ومذاقاً، وبعضه يأخذ مكانه في زوايا الدار مظاهر وتمتيعاً، والمصطلح الفقهي، بل القانوني أيضاً، يسمي ذلك كله «أكلَ الحرام».

وأثر الحرام، إذ يسري إلى الدار أو يدخل الفم، يتجلى في زجّ القلب في نوع من القسوة، تهون أمامها قسوة الوحوش في ممارساتها الغريزية التي تسمى من قبل الإنسان - ظلماً وافتئاتاً - قسوة.

يذكّر المستَهْتَر بالحرام إذ يدخل الدار أو الجوف، بالله فلا يذكره أو لا يريد أن يذكره، يلتهم النعم دون أن يسأل عن المصدر الذي جاءت منه، ودون أن يحدث نفسه بأن من اللؤم أن يتقلب في نعم الله أشكالاً وأنواعاً، ثم لا يلتفت إلى المنعم بأي شكر على نعمه أو اعتراف بفضله.

وإنما مردّ هذه القسوة إلى ما يحدثه التعامل مع المال الحرام أكلاً له أو تمتعاً به. وكلما تطاول أمد التعامل مع الحرام في حياة الإنسان، ازدادت القسوة التي يسميها البيان الإلهي في القرآن «الران» إحاطةً بقلبه. ولعله إن استمر على ذلك، يفقد نعمة الإيمان بالله عز وجل، ويرحل إلى الله معرضاً عنه أو ناسياً له.

وأما السبيل الثالث، فهو مجالسة الصالحين والابتعاد عن مجالس الفاسقين والمجالس التي تظهر فيها المنكرات، ويتم فيها تداول المحرمات.

والصالحون الذين يبتغى الخير في مجالسهم فريقان اثنان:

أما أحدهما فعوام من الناس طهرت قلوبهم من سخائم الطباع ورذائل الصفات ينشدون لأنفسهم الخير أينما كان، ويستوحشون من الشرور وأسبابها مهما كانت مغرياتها، تراهم دائماً في حالة انكسار بين يدي الله، يشكون إليه التقصير ويستنزلون من لدنه الصفح والغفران. إنهم باختصار ناس ممن قال الله عنهم لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ١٨/٢٨]، ولعلهم أيضاً ممن قال رسول الله عنهم: «رب أشعث أغبر ذي طمرين باليين مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه»[١].

(١) رواه الحاكم وأبو نعيم، ورواه بألفاظ قريبة مسلم وأحمد من حديث أبي هريرة.

فإذا عثرت على أناس من هذا الفريق، فاركن إليهم، وعرّض نفسك لرحمة الله عن طريقهم، دون أن تنتظر من الركون إليهم اقتباساً لعلم أو معرفة لحكم.

وأما الفريق الثاني فعلماء عاملون بعلومهم، زهدوا بأموال الدنيا ومناصبها، قيدوا أنفسهم بالورع، وفتحوا للناس أبواب اليسر من أحكام الشرع حيثما قام الدليل على ذلك من قرآن أو سنة أو اجتهاد الأئمة الموثوقين، لهم مع الله ساعات من الخلوات والأذكار ونوافل الطاعات، ولهم في الأسحار نصيب لا ينقطع من التضرع والانكسار والاستغفار.

فإذا أسعفك الحظ بمصادفة ناس من هذا الفريق، فمتن آصرتك بهم، واحرص على أن يكون لك حظ في مجالستهم والتلقي عنهم، واتخذ من كل من عثرت عليه منهم مرشداً لنفسك ومستشاراً لدينك؛ فإنّ علمه بشرع الله يورثك الهداية، وإنّ عمله مع الورع في معاملاته، يزيدك استئناساً بالله ووحشة من دنيا الرعونات والأهواء.

ولكن إياك أن تركن إلى من جعل من نفسه مرشداً وهو جاهل بأحكام الشريعة وعقائد الإسلام، فإن مثل هذا المدّعي إنما يريد أن يجعل من دعوى رتبة الإرشاد في ذاته حرفة ينال بها مغنماً من مال أو رتبة أو جاه..

وما تعرض مسلم لسبب خطير من أسباب الغواية والضلال، أخطر من تسبب المرشد المزيّف لذلك، وكم في المستقيمين مَن

انحرفوا، وفي المهتدين مَن ضلوا، من جراء انخداعهم بدجاجلة ركبوا مطية الإرشاد ذُلُلاً، وهم جاهلون بعقائد الدين وأحكام الحلال والحرام ودقائق العبادات والمعاملات.

ألا وإن الوصول إلى مرضاة الله لا يكون إلا بمصباح العلم، ثم إن العلم هو الذي يهدي إلى العمل، والعمل المنضبط بهداية العلم هو الذي يورث الخشية والحب. ومن زعم أنه وصل إلى كل منهما من دون علم فهو كاذب مدجل.

الثمرة التي يحققها الحب لله

إذا تحققت محبة الإنسان لله عز وجل، فإن أجلّ ثمراتها وأقدس آثارها، اتباع المحبوب. وإنما يكون ذلك بتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه. وملاك ذلك الاهتداء بكتاب الله والتمسك بسنة رسول الله. وصدق الله القائل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١].

ومحبة الإنسان لله تتفاوت درجاتها، فكلما كانت محبته لله أقرب إلى الكمال، كان اتباعه لله ولرسوله أتم، أي فهو لا يقف في اتباعه عند حدود الواجبات، بل يتجاوزها إلى المندوبات والكمالات، ولا يبالي أن يحمّل نفسه في سبيل ذلك أنواع المشاق.

وإذا تدانت محبته لله عز وجل تدانى بسبب ذلك اتباعه وانضباطه بشرائع الله وأحكامه وآدابه.

ومن ثمرات محبة الإنسان لله تعالى الشوق إلى لقائه. إذ من المحال أن يحب الإنسان شيئاً ولا يحب لقاءه أو القرب منه، وإذا علم المحب لله أن لقاءه رهن بموته وخروجه من الحياة الدنيا، فينبغي إذن ألا يكره الموت، بل الذي تقتضيه حقيقة حبه لله أن

ينتظره وأن يستأنس بقربه لأنه السبيل إلى لقاء محبوبه ألا وهو الله، ومثل هذا الإنسان لا بدّ أن يبادله الله حباً بحب، وهذا هو معنى قول رسول الله في الحديث المتفق عليه: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

وما علمنا في عباد الله الصالحين واحداً أحب الله بصدق، إلا استأنس بالموت وتهلل له عندما لاحت له دلائله، ظهر ذلك على وجه حذيفة رضي الله عنه وفي كلامه، عندما وجد نفسه يدنو من الموت، فقد كان من قوله: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم».

ولما داهمت غمرات الموت معاذاً رضي الله عنه، طفق يقول: «أي رب: اخنقني خنقاتك، فوعزّتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك».

وقد نقل سبط ابن الجوزي عن جدّه أن أحمد شقيق الإمام الغزالي قال: «لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار».

وربما قال بعضهم: إن الإنسان ربما كره الموت واستوحش منه، مع حبه لله عز وجل، لما يرى من تقصيره في أداء حقوق الله، ولما يخيل إليه من تعاظم ذنوبه.

وأقول: إن هذا الاحتمال إنما يطوف بذهن من لم يذق لذة محبة الله عز وجل، أما الذي أحب الله عز وجل حقاً، فإن شوقه

إلى اللقاء يتغلب على مخاوفه مما قد ينتظره من عقوبات تقصيره، أجل، فإن الذي استبد به الشوق إلى لقاء الله، لا يبالي أن يجد في طريقه إلى ذلك أو في أعقاب ذلك كل ما قد يفترضه من الآلام. بل إن لواعج حبه تحجبه عن التفكير في مخاوف العقاب الذي قد ينتظره.

ومن ثمرات محبة الله الاستهتار بذكر الله، بحيث يتغلب ذكره الله تعالى على عوارض دنياه وعلاقاته، وعلى محادثاته المعيشية مع الآخرين. وهم الذين قال رسول الله ﷺ عنهم: «سبق المفردون» قالوا: ما المفردون؟ قال: «المستهتَرون بذكر الله عز وجل، يضع عنهم الذكر أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً»[1].

وهذه الثمرة ليست محل ريب أو نقاش، فإن من المعلوم أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وركن إلى الذين يكثرون من ذكره.

والاستهتار بذكر الله يدعو إلى التلذذ بذكر الله في الخلوات، لا سيما في الهزيع الأخير من الليل، يزعجه الشوق إلى مناجاة الله وذكره في منامه، ويوقظه من رقاده، فلا يرى في تلك الساعة متعة ألذّ إليه من الوقوف بين يدي الله يذكره ويناجيه ويشكو إليه تباريح وجده.

ومن ثمرات محبة العبد لله عز وجل أنه يشفق على كل من ينتمي إلى الله بنسب العبودية له، وأنه يحبهم، بأن يحب لهم سعادة

(١) رواه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة.

العاجلة والعقبى، والنجاة من غضب الله وعقابه. وهذا لا يتعارض مع ما هو مقرر من ضرورة البغض في الله. لأن البغض في الله ما ينبغي أن يتجه إلى الشخص من حيث ذاته، بل يتجه إلى المعصية التي تلبس بها أو إلى الكفر الذي أصرّ عليه، وليس بغض المعصية التي تلبس بها العاصي، في الحقيقة، إلا معنى من معاني الإشفاق على شخص العاصي. وهذا ما عناه سيدنا لوط، على نبينا وعليه الصلاة والسلام عندما قال لقومه، فيما رواه ربه عنه ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

محبة العبد ربه
غاية وليست وسيلة

قد يبدو من الحديث عن الثمرات التي تحققها محبة الإنسان لله، أن أهمية المحبة تكمن في كونها وسيلة إلى غاية، وهي هذه الثمرات التي نتحدث عنها.

غير أن الأمر ليس كذلك، فمحبة الإنسان لله غاية بحدّ ذاتها، بقطع النظر عن الآثار التي تحققها.

إن محبة الإنسان لله، حق في عنقه لله عز وجل، والذي استوجب هذا الحق عليه، النعم التي تفد إليه من الله عز وجل، وهي نعم كثيرة لا حصر لها ولا سبيل لإحصائها. والثمرات التي تحققها هذه المحبة لا تخلّ بكون المحبة غاية بحدّ ذاتها.

إننا لو قلنا بأن الحب مجرد وسيلة إلى الثمرات التي ذكرناها، لأدّى ذلك إلى القول بأن هذه الثمرات إن أمكن تحقيقها عن طريق آخر غير الحب، فإن الحاجة إلى محبة الله تسقط بذلك.. كأن يزعم قائل بأن اتباع المحبوب قد يكون بسائق الخوف منه، ومن ثم فلا حاجة إلى سببية الحب لذلك. إن من الواضح أن هذا فكر ذرائعي تنأى عنه حقائق عبودية الإنسان لله.

ومن هنا يجب أن نعلم أن علاقة الإنسان بربه تستوجب حبه له، حتى ولو علم أنه معرّض لعقابه، وإهدار قرباته؛ إذ إن معنى العبودية يستلزم ذلك.

وربما استشكل هذا الكلامَ بعضُهم قائلاً: كيف أحب من يهدر خدماتي له ويصرّ على معاقبته لي من دون موجب؟

والجواب أن كلمة «يهدر خدماتي» وكلمة «من دون موجب» إنما يصدق كل منهما على العلاقة السارية بينك وبين أندادك من الناس. أما العلاقة السارية بين العبد وربه، بين المملوك ومالكه، فلا توجد في قاموسها كلمة «من دون موجب» ولا كلمة «أهدر خدماتي». وصدق الله القائل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٣]؛ إذ المالك الحقيقي يفعل بمملوكه ما يشاء. وأقول «المالك الحقيقي» احترازاً عن الملكية التي تنسب إلى الأشخاص في مجال المعاملات السارية فيما بينهم، فهي ملكية مجازية اقتضتها الحاجة إلى تنظيم العلاقات التعاونية فيما بينهم، ولذلك صح أن تقيد هذه الملكية المجازية بقيود وشروط، وأن يقيد حق التصرف بما نسميه مملوكاً بعدم التعسف فيه. ولو كانت الملكية الناتجة عن البيع والشراء والهبات ونحوها ملكية حقيقية، لما صح أن يقيد حق التصرف بالمملوك بأي قيد أو شرط.

ولعل الشيء الذي يعنيه هذا المستشكل، هو أن ما يملكه الخالق عز وجل من حق التعذيب لمن يشاء، وما يصدر عنه فعلاً من ذلك، يورث الإنسان الخوف منه، والشأن في الشخص الذي

يخاف الناس من بطشه ألا تتوجه أفئدتهم إليه بالحب؛ إذ المحبوب لا يُخاف منه، والذي يُخاف منه لا تتوجه قلوب الخائفين منه إليه بالحب.

والجواب أن بين الحب والخوف تضاداً في علاقة الناس بعضهم ببعض. ذلك لأنك إن شعرت بالخوف من بطش ظالم بك، فررت منه إلى من تعلم أنه يحميك وينصفك منه، فتتوجه بالخوف إلى من تتوقع منه البطش بك، وتتوجه بالحب إلى من تعلم أنه يحميك وينصفك منه.

أما ما قد يتوقعه الإنسان من بطش الخالق عز وجل، فإن ذلك يدعوه إلى أن يفرّ من بطشه الذي يتوقعه، ولكن إلى أين؟ بل إلى من؟.. إنه لن يجد سبيلاً للفرار من بطشه إلا ذلك السبيل الذي يجعله يفرّ إلى الأمل برحمته.. فهو يخافه إذ يفرّ من بطشه، ويحبه إذ يفرّ من بطشه إلى الأمل برحمته.

إذن فلنعلم أن كلاً من الحب لله والخوف منه أمران ذاتيان؛ وكل منهما غاية بحدّ ذاتها، أي ليس أداةً للوصول إلى مقصد ما مما قد يطلبه الإنسان.

هل من مستلزمات محبة الله عدم الوقوع في المعاصي؟

قلنا إن من أجلّ وأولى ثمرات حب الإنسان لله، اتباع المحبوب بالانقياد لأوامره والانتهاء عن نواهيه.

فهل هذا يعني أن الحب يستلزم من المحب العصمة من الذنوب والآثام؟

إن الإجابة الدقيقة عن هذا السؤال، هي أن نقول: إن محبة الإنسان لربه تستدعي صدق البيعة مع الله على تنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه، والبيعة الصادقة مع الله تستلزم الانقياد لأحكامه جهد الاستطاعة، أي فمحبة الإنسان لله تستلزم أن يعزم المحب بصدق على الانقياد لأحكام محبوبه وأوامره في كل ما يأمر به وينهى عنه.

ولكن هل تستلزم هذه العزيمة الصادقة، الانقياد الفعلي لسائر شرائع الله وأحكامه؟

والحق أن العزيمة مهما كانت صادقة لا تستلزم كمال الانقياد الدائم لسائر شرائع الله. إذ لو استلزمت العزيمة ذلك، لكان هذا التلازم مخالفاً لما هو مقرر من ضعف الإنسان من جراء

محدودية قدراته، ومن جراء تسلط الغرائز الحيوانية، مع شياطين الجن عليه.

إذن فربما كان الإنسان صادقاً في حبه لله عز وجل، وصادقاً في عزيمته على اتباع شرائعه وأحكامه، ثم يزجه الضعف الذي قضى به الله عليه، في بعض المعاصي وربما الفواحش.

وقد صح أن صحابياً اسمه نعيمان كان يؤتى به أكثر من مرة إلى رسول الله وقد ارتكب موجباً للحد، فيقام عليه الحد، إلى أن أُتِي به يوماً فحُدَّ لشربه الخمرة، فلعنه رجل، وقال: ما أكثر ما يُؤتى به رسولَ الله ﷺ. فقال له رسول الله: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله».

ولعلك تسأل: ففيم عرّضه الله للوقوع في المعاصي؟ وهلا جعل الله من حب عبده له حصناً يقيه من الوقوع في الزلل؟

والجواب أن لله حكمة بالغة في هذا الذي تستشكله وتسأل عنه.

وصفوة القول في بيان هذه الحكمة، أن الإنسان لا يصل إلى مرضاة الله بالحب وحده، بل لا بدّ أن يقترن الحب الذي يهيمن على قلبه بالعبودية الضارعة يصطبغ بها كيانه. ومعين محبة الله في كيان الإنسان قلبه وما ينطوي عليه من العواطف، أما معين العبودية في كيان الإنسان فهو ضعفه وما قد يستلزمه من تعثر في طريق بعض الالتزامات، وعجز عن القيام ببعض الواجبات. وهذا الضعف وإن كان من شأنه أن يوقع المحب لله في بعض أنواع التقصير تجاه

محبوبه، ولكنه يرقى به عوضاً عن ذلك إلى مقام التذلل والانكسار والمسكنة بين يدي الله عز وجل. وهذا المقام لا يصل الصديقون من دونه إلى الله.

ولولا هذا الضعف الذي جعله الله مَيْسَماً للعبودية في كيان الإنسان، لقاده الحب لله تعالى إلى النشوة، فالسكر، وإلى الإعلان عن استعداده لتحمل كل المرهقات وسائر الابتلاءات والآلام، تعبيراً عن بالغ حبه الصادق لله عز وجل. وفي هذه الحال تغيب مشاعر العبودية لله في ضرام هذه النشوة التي يبعثها الحب في الكيان. وفي ذلك من سوء الأدب مع الله ما فيه.

وقد روى الإمام القشيري في رسالته أن رجلاً من الصالحين كان كثيراً ما يخاطب الله قائلاً:

وليس لي في سواك قصد
فكيفما شئت فامتحنّي

قالوا: فابتلاه الله بحصر البول، فصبر.. ثم صبر إلى أن كاد ينفد صبره، فكان يخرج إلى السوق ويعطي الأطفال الحلوى قائلاً لهم: ادعوا الله لعمكم الكذاب.

وأقول: إنه لم يكن كاذباً في حبه، وفي عزمه على الصمود والصبر أمام ابتلاءات الله، ولكن نشوة حبه لله أنسته ضعفه وعجزه. وهكذا فقد كان الرجل صادقاً في عزمه، ولكنه كان ناسياً ضعفه وعجزه.

وإنك لتلاحظ بأن الله متع الإنسان بقلب يتسع لأقدس أنواع الحب، وبروح تحتضن منذ فجر وجودها محبة بارئها عز وجل. ولكنه ابتلاه في الوقت ذاته بالضعف والعجز أمام عزم النهوض بحقوق هذا الحب. وإن لذلك لحكمة باهرة.

عندما تطوف به نشوة الحب لله يستنهض كيانه لأداء كامل حقوق حبه له، وعندئذ يصطدم بمظاهر عجزه وضعفه. وهنا يبرز دور العبودية لله عز وجل، إذ يشكو المحب إلى محبوبه عجزه ويستنجده القدرة التي تمكنه من أداء حقوق حبه له.. فيكون الأجر الذي يدّخره الله له على تذلُّلِه ومسكنته إذ يلتصق منكسراً بأعتاب كرمه، مساوياً للأجر الذي يدّخره له الله على صدق حبه له.

وهكذا يطير الإنسان إلى مرضاة الله بجناحي حبه، وعبوديته الضارعة له. وهيهات أن يغني الواحد منهما عن الآخر.

وإليك بيان هذه الحقيقة بطريقة ربما أكثر وضوحاً، كنت قد دونتها في كتابي شرح الحكم العطائية:

«إن الكيان الإنساني يحوي طاقة علوية تتجه بالحب والحنين إلى الملأ الأعلى، وتتمركز هذه الطاقة في الروح التي تعكس إيحاءاتها إلى القلب. إلا أنه في الوقت ذاته يعاني من ضعف آت من تسلط العوامل الغريزية والشهوانية والوساوس الشيطانية عليه، ومن محدودية الطاقة الجسدية.. فينشأ التناقض عندئذ بين الطاقة الروحية التي يترجمها القلب إلى مشاعر الحب والتعظيم،

والضعف الطبيعي الذي تترجمه الغرائز والأهواء والشهوات ومحدودية الطاقة.

فما النتيجة التي تنشأ من هذا التناقض؟

النتيجة التي لا مناص منها، هي الوقوع بين جاذبي الخطأ والصواب، أو الطاعة والعصيان، وصدق رسول الله القائل: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[١].

تعلو به الروح ومشاعر القلب نحو الطاعة، وتسمو به صعداً لأداء حقوق الحب والمهابة والتعظيم.. وتثّاقل به أعباء الشهوات والغرائز والضعف البشري إلى حظوظ النفس ورغائبها؛ فيصيب ويخطئ، ويستقيم على أوامر الله ويتعثر، ويطيع ويعصي.

ذلك هو شأن الإنسان، بل ذلك هو شأن المسلم في كل زمان ومكان، حاشا الرسل والأنبياء، فقد ميزهم الله بالعصمة من الانحرافات والآثام. ليتأتى لهم النجاح في الدعوة إلى الله، والنصح بالسير على صراط الله، وليكونوا في حياتهم وسلوكهم قدوة للآخرين.

ولكن ما الحكمة من هذا التناقض بين تسامي الروح والقلب إلى عالم الاستقامة والحب وآمال الانقياد الدائم لأمر الله، واتجاه الكيان البشري مثقلاً بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء؟ ما الحكمة من قيام التناقض بين قوة الحب الرباني المهيمن على الفؤاد، وضعف الطاقة البشرية المهيمنة على الذات والكيان؟

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بن مالك.

الحكمة أن يرى العبد المؤمن بالله عز وجل من هذا التناقض مشكلة لا مفرّ منها إلا بالالتجاء إلى الله والاستعانة به.. يفرّ إلى الله من ضعفه، ويلوذ به من واقع غرائزه وضراوة شهواته، ويسأله ألا يكله إلى نفسه وألا يتركه لضعفه النفسي أو الجسدي، معترفاً بأنه ضعيف مهين، لا يملك - من دون عون الله له - حولاً ولا قوة.

وهذا المصير الذي ينتهي إليه العبد فراراً من التناقض الذي وصفته لك، هو المعنيّ بكلمة «العبودية». وهي الغاية القصوى من تقلبات الإنسان في حياته الدنيا. ولا فائدة من العبادات السلوكية الظاهرة من دون التحقق بمشاعر العبودية الواجفة.. وهي في خلاصة معناها حالة من الافتقار الكلّي يشعر به الإنسان تجاه ربه عز وجل، فتقوده إليه بالدعاء والرجاء والاسترحام وطلب العون، وهي سلّم القرب من الله، ومفتاح الوصول إلى مرضاته.

ومهما صلّى العبد وصام، ومهما تفنن في النسك والعبادات، لا يقرّبه شيء من ذلك إلى الله، إلا إن كان مضمّخاً بذلّ الافتقار إليه ممزوجاً بمشاعر الانكسار بين يديه.

ولكن، من أن يأتي هذا الانكسار؟ ومن أين يصدر الشعور به؟..

إن شيئاً من ذلك لا يصدر إلا من هذا التناقض الذي قضى به الله عز وجل، بين القلب الذي جعله الله وعاء مهيأ لأقدس معاني الحب.. الحب الصاعد من فؤاد العبد إلى الرب عز وجل،

وبين الكيان البشري الذي ابتلاه الله بالضعف والعجز عن أداء حقوق هذا الحب.

تصور، لو أن الله أكرمك بقدرات بشرية تتناسب ولواعج محبتك له ورغبتك في الاستقامة على أوامره ووصاياه كلها، من دون أي تقصير، إذن لهيمنت عليك نشوة الشعور بالنصر، ولطاف بك الزهو، ولنال منك الإعجاب بقوتك ونجاح جهودك، ولزجّك الحب العاري عن مشاعر العبودية لله، في حالة من الدعاوي والالتزامات التي لست أهلاً لها، كالحالة التي جعلت ابن الفارض يقول:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضا
لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

فما الذي يقودك في ضرام هذه النشوة إلى الالتجاء إلى الله، ومن أين لك سبيل الانكسار بين يديه، وكيف تشعر بمصداق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥]؟

إذن فمظاهر الضعف التي ركبها الله في كيان الإنسان، ابتلاء ومحنة في الظاهر، ولكنها نعمة من الله له في الحقيقة وباطن الأمر، تقوده، بل ترقى به إلى سدّة العبودية التي بها سمت رتبة الإنسان عند الله إلى أعلى من درجة الملائكة.

محبة الإنسان للإنسان

رأينا حديث البيان الإلهي عن محبة الله للإنسان، ثم رأينا حديثه عن محبة الإنسان لله تعالى. فماذا عن حديث القرآن عن محبة الإنسان للإنسان، بل لسائر الأغيار؟

يلاحظ أن محبة الإنسان لسائر الأغيار، بما فيها الإنسان، طبيعة مغروسة في كيانه، لما له في ذلك من حظوظ نفسية. وإنما الذي نعنيه هنا محبة الأزواج والأبناء والآباء والأقارب والأصدقاء والأحباب، والمظاهر الدنيوية.

ولذا فإن حديث القرآن عن حب الإنسان للإنسان، إنما يأتي في سياق الإخبار عنه والتقويم له، ولا يأتي في سياق الأمر به أو الدعوة إليه؛ إذ هي طبيعة مغروسة، فما الحاجة إلى الدعوة إليها أو الأمر بها؟

إن القرآن إذ يتحدث عن حب الإنسان للإنسان وما يتبعه من ذيول المظاهر الدنيوية، إنما يحذر الإنسان من أن يجعل من حبه للآخر، أياً كان، مزاحماً أو منافساً لمحبة الله عز وجل.

إنه يحذره من أن يجعل حبه لأي شيء حباً مع الله، ويدعوه إلى أن يجعل حبه للأغيار، أياً كانت، حباً في الله.

فهذه هي خلاصة حديث القرآن عن حب الإنسان للإنسان خاصة وسائر الأغيار عموماً، وإليك شيئاً من التفصيل في ذلك.

تأمل في قول الله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥].

وكلمة «أنداداً» تشمل كل ما يُتخَذُ مكافئاً لله في الحب له، من أناسيّ وغيرهم.

وتأمل في قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤].

وانظر ببصيرتك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

وانظر إلى هذا الذي قاله الله لقارون على لسان بعض الصالحين، أو بعض الأنبياء من قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ، وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٦-٧٧].

وتأمل في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٧-٢٠].

تجد في بعض هذه الآيات تقريراً لحقيقة واقعة قضى بها الله عز وجل؛ وهي تعلق نفوس العباد بمحبة كثير من الأغيار: النساء والبنين وأفراد العشيرة والقوم، والأموال والتجارات والمساكن.. إلخ.

وتجد في بعضها الآخر تحذيراً شديداً من أن يذهب الإنسان في حبه لتلك الأغيار على اختلافها، مذهباً تسمو به محبتها على محبة الله أو تتكافأ محبتها مع محبة الله.

فما وجه التنسيق بين القرار الذي قضى به الله عز وجل، وهو غرسه لمحبة هذه الأغيار في النفوس، وبين التحذير من محبتها والدعوة إلى أن تكون خادماً لمحبة الله أداة للوصول بها إلى مرضاته؟

❁ ❁ ❁

وجه التنسيق بين ما قضى الله به من حب الأغيار، وما دعا إليه من الترفع عن حبها

لعلك تعلم أن الله شرف الإنسان بأن يكون خليفة عنه في الأرض، والآية التي قرر الله فيها هذه الخلافة للإنسان هي قوله تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

ولا يذهبن بك الوهم إلى ما يستعظمه وينكره أصحاب الفكر السطحي لمعنى خلافة الإنسان عن الله في هذه الآية. فليس المراد بالخلافة هنا ما يتوهمونه من نيابة الإنسان عن الله في وظائف الربوبية، ووكالته عنه في تدبير مكوناته، تعالى الله عن أن ينيب عنه في إدارة الكون غيره، وضؤل الإنسان وصغُر عن أن يتمطى فيتجاوز حدود عبوديته الضارعة لله عز وجل.

وإنما يتلخص معنى الخلافة التي أعلنها البيان الإلهي للملائكة، وظيفةً يكلف بها الإنسان، في أنه عز وجل شاء أن يضع موازين العدالة في الأرض بين يدي الإنسان، وأن يكلفه بفهمها واستيعابها، ثم أن يقيم دعائم المجتمع الإنساني في الأرض على أساسها، وأن يدعو سائر بني جنسه إلى معرفتها ثم الاحتكام إليها، طوعاً لا كرهاً، وبسائق من الحرية وامتلاك أخذ القرار، أي لا بسائق من الغريزة التي سيقت إليها سائر الحيوانات العجماوات.

فإذا نهض الإنسان بالرجوع إلى هذا الميزان الذي وضعه الله بين يديه، ثم تفهمه، ثم ضبط به حياة المجتمعات الإنسانية، وجعل منه النظام الذي يهتدي به، فباسم من ينهض الإنسان بذلك، واستجابة لأمر من يدعو سائر إخوانه من بني جنسه إلى تقبلها باختياره، وإلى الاحتكام إليها بملء الرضا وحرية اتخاذ القرار؟

لا ريب أنه إنما ينهض بذلك متعاوناً مع بني جنسه، باسم الله، واستجابة لأمر الله، ويقيناً منه بأنه عز وجل شاء أن يكرم الإنسان، فلا يقيده، كشأن سائر الحيوانات الأخرى، بأغلال الغريزة التي

تقودها قسراً دون اختيار إلى الالتزام بالنظام المعيشي الذي شاءه لها، بل شاء أن يجعله أمير نفسه في تفهم الرسالة التي أرسلها إليه والمهمة التي أنهضه إليها. ثم شرفه بأن يحقق مضمون تلك الرسالة عدالة وتعاوناً وحباً بين أفراد الأسر الإنسانية جمعاء.

فتلك هي حقيقة الخلافة التي شرف الله الإنسان بها، في حين أنه حرم الحيوانات العجماوات منها.

فهذه الخلافة اقتضت أن يمتع الله الإنسان بصفات وقدرات يستعين بها للنهوض بالوظيفة التي استخلفه الله فيها، منها الإدراك والعلم ومظاهر متنوعة من القوة، والشعور بالذات «الأنا» والرغبة في التملك وحيازة الأشياء.

وهي في الحقيقة فيوضات من صفات الربوبية، وتلك هي التي عبّر عنها البيان الإلهي بالأمانة، في قوله عز وجل:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢].

إذن فقد اقتضت الوظيفة القدسية التي أنهض الله إليها الإنسان أن يسخر له كثيراً من المكونات التي من حوله، لتكون أدوات يستعملها للوظيفة التي كلف بها، منها كل ما تزخر به الأرض من ثمار وخيرات ومعادن، ومنها الأموال التي يتم بها تبادل المنافع، فتكون سلّماً لا غنى عنه لبلوغ الغاية المنشودة، أي لإقامة المجتمع الإنساني على أسس العدل.

ثم كان من مقتضى الحكمة أن توجد الرغبة لدى الإنسان في التعامل مع هذه الأدوات والآليات؛ إذ ما الذي يقوده إلى التعامل معها إن لم يكن في نفسه توجهٌ إليها ورغبة فيها، سواء كان ذلك مالاً يتمثل في النقود، أو أنعاماً وأراضي ومزروعات وفاكهة ومدّخرات، أو نساءً وأولاداً وذرية مما يتكون منه نسيج الأسرة، ويعدّ أساساً لتكون المجتمعات.

فمن هنا غرس الفاطر الحكيم حب المال في النفوس، وفطر الإنسان على حب التزاوج، وجعل كلاً من الرجل والمرأة لباساً للآخر، وفطره على حب التملك وتحيز المشتهيات، وأيقظ فيه من مشاعر الأنانية والذاتية ما يجعله يدافع بذلك عن حقه أمام الأخطار التي قد تطوف به، ليتخذ من ذلك كله وسائط وأدوات للوظيفة التي كلفه الله بها.

ولكن ها هنا تنبثق المشكلة..

ما الذي يجعل النفس الإنسانية، وقد فطرت على حب تلك الآليات التي صاغ الله منها مشتهيات للإنسان، تقف عند حد الضرورة أو الحاجة في حبها والتوجه إليها؟

كيف تفطم النفس الإنسانية نفسها عن التعلق بما فطرها الله على حبه وأعلن عن ذلك بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤]؟

وبعبارة أخرى: كيف السبيل إلى التنسيق بين ما قضى به الله تعالى من حب الإنسان للإنسان ولمشتهياته الأخرى، وبين ما أمر به الإنسان من التسامي على حب ما عدا الله. كيف السبيل إلى أن يصبح الإنسان (وهذا هو قضاؤه الذي شاءه الله له) داخلاً فيمن وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥]؟

سبيل ذلك ما هو معلوم من أن الحب الأقوى يتغلب ويحكم على الحب الأضعف. وإليك بيان ذلك بشيء من التفصيل.

تحدثنا من قبلُ عن حب الله للإنسان، وذكرنا مظاهر ذلك ودلائله. ثم تحدثنا عن حب الإنسان لله، القديم منه العائد إلى العهد القديم المتمثل في خطاب الله القائل: ألست بربكم، والكسبي منه العائد إلى أسبابه الكسبية التي تحدثنا عن كثير منها.

إن في هذا الذي ذكرناه بتفاصيله ودلائله، ما يشكل وقاية للنفس ضد هجوم محبة الأغيار إليها، وضد تغلب حب ما عدا الله على الحب المتبادل ما بين الله وعباده.

وليس السبيل إلى ذلك محصوراً في أن تمتلخ محبة الإنسان لله محبة الأغيار من نفسه، بل إن الله لم يطلب ذلك من عباده. وإنما الذي تحققه المحبة المتبادلة ما بين الله وعبده، تحجيم محبته للأغيار، بحيث تقف به عند المهمة المسخرة لتحقيقها، وهي ما سبق بيانه من تسخيرها للنهوض بالوظيفة التي استخلف الله الإنسان لأجلها. وتبقى محبة الله هي المتغلبة وهي المتحكمة بحياته وسلوكه.

ألا ترى إلى هذا اللطف الرباني كيف يتجلى في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥]؟

ألا ترى إلى هذا اللطف ذاته متجلياً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

لم يطالب الله عباده في الآيتين: الأولى والثانية، بأن تكون محبتهم لله وحده من دون سائر الأغيار، وإنما طلب منهم ألا تكون محبتهم للأغيار من الناس والرغائب الدنيوية الأخرى أشدّ من محبتهم لله تعالى.

فكأنه يقول: كيف أطلب منكم اجتثاث حب الأهل والزوجة والأولاد وأمتعة الدنيا من قلوبكم، وأنا الذي غرست حبها في قلوبكم، ولكن الذي أطالبكم به أن تكون محبتكم للأغيار محكومة بمحبتكم لي، ومن ثم خاضعةً لأحكامي وشرائعي.

حب الإنسان لأخيه الإنسان
ثمرة لحب الله

ثم إن هناك فرقاً بين حب الإنسان لأمتعة الحياة الدنيا: أموالها زخارفها شهواتها، وحبه لأخيه الإنسان.

فأما هذا الثاني، وهو حب الإنسان لأخيه الإنسان أياً كان، فهو بالنسبة إلى من كان له حظ وفير من محبة الله، من نتائج حبه لله تعالى.

لقد قلت لك من قبل: إن من أحب الله حقاً لا بدّ أن يحب عباده، لأنهم، أياً كانوا، داخلون في الجنس الإنساني الذي نال تكريم الله تعالى بأمره الملائكة بالسجود له، وبتشريف روحه السارية فيه بنسبتها إليه.

ثم إن الناس مهما تفرقوا بعد ذلك في مذاهبَ وعقائد شتى، إما أن يكون الواحد منهم شريكاً لك في السير على صراط الله والالتزام بأوامر الله، وإما أن يكون أخاك في الإنسانية، تجمعك معه صلة العبودية والمملوكية لله.

فأما الأول منهما، فليس الحب الساري بينك وبينه (ما دمتما ملتزمين بتعاليم الله سائرين على صراطه) إلا حباً منبثقاً من حب كل

منكما لله، فلتعلم أنه كلما ازداد هذا الحب بينكما حرارة، ازدادت محبة الله لكل منكما، وحاشا أن يكون الحب الساري بينكما، مزاحماً لمحبة الله، أو شاغلاً لكما عنه.

ألم يقل رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين فيّ، وحقت محبتي للمتناصحين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ. وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ..»[(١)]؟

وليست صفات التناصح والتواصل والتزاور والتباذل، التي أعطاها الله جميعاً حكم التحابب، إلا ثمرة له؛ أي للتحابب، فلولا الحب الساري بينهما ما تواصلا وما تناصحا وما تزاورا وما تباذلا. وملاك هذه المزية التي أنبأنا عنها الله في هذا الحديث هو التلاقي على الالتزام بأوامر الله.

فكيف يكون التحابب الذي هو ثمرة الاجتماع على الله، شاغلاً عن محبة الله أو منافساً لمحبة الله؟!..

لعلك تقول: فما أكثر ما يجمع هذين المتحابين مصالح دنيوية ومجالس أنس لا يبتغى منها إلا المتعة الدنيوية، على الرغم من كونهما مجتمعين على الالتزام بأوامر الله.

وأقول: المصالح الدنيوية المشروعة لا تخل بهذا الذي بشر الله

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن الصامت، ورواه بألفاظ قريبة الترمذي من حديث معاذ.

به عباده هؤلاء في الحديث القدسي الذي ذكرناه، وما أكثر ما يكون اقتطاف المباحات من الأطعمة والمستلذات والمتع، مصدر مثوبة وأجر للمتلاقين عليها والمستمتعين بها.

تأمل في قوله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين به: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥] ألا ترى فيه دعوة كريمة حارّة إلى هذا التلاقي على مائدة الله الفياضة بأسباب المتعة واللذائذ؟

وقانون التحابب في الله أن يكون مصدر الحب الساري بين المتحابين رَحِماً دينياً، وأن يكون الحامل لتلاقيهما شيئاً يرضي الله تعالى، وما أكثر الأشياء التي ترضيه، إن منها الاستجابة لدعوة الله عباده إلى موائد نعمه وإحسانه، وإن منها التلاقي على خدمة من الخدمات الإنسانية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية التي تساهم في إقامة المجتمع الإنساني على النحو الذي دعا إليه الله عز وجل وأمر به.

وهل هذا إلا من بعض معاني قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

❀ ❀ ❀

وأما الثاني منهما، وهو ذاك الذي هو أخوك في الإنسانية، تجمعك معه صلة العبودية والمملوكية لله، فحسب هذه الصفات الثلاث الجامعة بينكما موجباً للحب والتآلف. ولا ريب أنه هو

الآخر متفرع عن حبكما، أو عن حبك أنت وحدك لله عز وجل، إن أنت لاحظت هذه الصفات الثلاث الجامعة بينكما، واستجبت لما فيها من الدعوة إلى التلاقي فالتناصح والتعاون، ابتغاء تحقيق ما أمر به الله.

لعلك ممن يحصر الأخوة بين عباد الله المسلمين فقط، ويمعن في تجاهلها والشطب عليها بين مسلم وكافر، مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠]؟ ولعلك تقول بصدد هذا الاستدلال: إن في الآية أداة حصر، هي «إنما»، ومقتضى الحصر أن تكون الأخوة محصورة بين المؤمنين دون غيرهم.

وأقول: لقد كنت في يوم ما، منذ عهد قديم، أتوهم صحة هذا القول، وأركن إلى هذا الاستدلال. ولكن الذي بدا لي فيما بعد، أن ذلك الفهم سرى مني إلى القناعة العاطفية لا إلى مكمن اليقين العقلي، وأن الحصر في الآية ليس موجهاً إلى هذا المعنى، بأي اعتبار.

فالأخوة الإنسانية بين أولاد سيدنا آدم، قائمة لا مجال لإنكارها ولا معنى لتجاهلها، سواء جمعتهم عقيدة دينية واحدة، أو توازعتهم عقائد ومذاهب شتى.

أما الاستدلال بما في الآية من حصر، فلا علاقة له بالمدلول الذي يخالف هذا الذي نقوله أبداً. إن الحصر متوجه في الآية إلى الأحوال التي يكون عليها المؤمنون في علاقاتهم بعضهم مع بعض.

فمؤدى الحصر ومضمونه هو أن علاقة المؤمنين بعضهم مع بعض في كل الحالات ليست إلا علاقة الأخوة، أي فما ينبغي أن تتحول، لسبب ما، إلى قطيعة أو خصام.. أما علاقة المؤمنين مع غيرهم، أو علاقة غير المؤمنين بعضهم مع بعض، فمسكوت عنها وليست المرادة بهذا الحصر أبداً.

وهذا الحصر الذي تنبئ عنه «إنما» في هذه الآية، مثل الحصر الذي تنبئ عنه «إنما» في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١]، أي إن علاقتك مع الذين بعثت إليهم في كل الأحوال لا تتمثل إلا في تذكيرهم بالحق ودعوتهم إليه، فلا تتجاوز وظيفتك هذه إلى غيرها. أما موقف الآخرين من هذا التذكير الذي هو وظيفة رسول الله، فمسكوت عنه، ولا علاقة لأداة الحصر به.

ثم إن التذكير الذي أمر الله به رسوله، وورثه من بعده العلماء القائمون بأمر الدعوة، ليس إلا من ثمرات وحقوق هذه الأخوة. فلولا الأخوة الإنسانية الجامعة، لما حُمِّل الإنسان تجاه أخيه الإنسان مسؤولية النصح له ووظيفة القيام بدعوته إلى الحق.

إن التذكير الذي قام به رسول الله تجاه الضالين والتائهين من الناس، والذي قام به سائر الرسل والأنبياء من قبله تجاه أقوامهم، إنما نهض على أساس من الرحمة بهم والشفقة عليهم، ألم يقل الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]؟

ألا ترى إلى حوار الرسل والأنبياء لأقوامهم، فيما يرويه لنا بيان الله عز وجل، كيف يتجه إليهم مغموساً بمشاعر الرأفة بهم والغيرة عليهم والحب لهم؟

لا ريب أن المستقيم على صراط الله من إخوانك في الإنسانية، إن كان أهلاً لعطفك عليه ورحمتك له، فإن التائه عن صراطه المتنكب عن هديه، يتمتع بأضعاف تلك الأهلية. لأن المعرض للشقوة والهلاك أحوج إلى عطف إخوانه ورحمتهم به من الآمن في سربه المكلوء بضمانات السعادة والخير.

ولقد قلت لك من قبل: إن البغض في الله حق، كيف لا وقد قرر ذلك المصطفى ﷺ بصريح بيانه، إذ قال:

«أوثق عرا الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»[١].

ولكن الذي يفسر معنى البغض في الله، هذا الذي تم بيانه مستنداً إلى الأدلة التي سقناها، أما التذكرة التي كُلِّفَ بها رسول الله لأمته والرسلُ السابقون لأقوامهم، فليست إلا ثمرة عطف على تلك الأمم والأقوام، وثمرة رحمة بهم وغيرة عليهم. إذ لا يمكن أن يقع تناقض بين بيان الله وكلام رسوله، كما لا يمكن أن يقع تناقض بين أقوال رسول الله وتصرفاته.

---

(١) رواه الحاكم والطبراني من حديث ابن مسعود. ورواه أحمد والبيهقي من حديث البراء بلفظ: «إن أوثق عرا الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله».

ومعنى البغض في الله، في ضوء هذا الذي تم بيانه، بغض المعصية التي تلبس بها العاصي، مع الشعور بالعطف على العاصي والرحمة به.

فأما بغض شخص العاصي، من حيث هو ذات، فذلك غير وارد أبداً، وإنه لأبعد ما يكون عن أدبيات الدعوة إلى الله. وإن افتراض ذلك يقتضي بقاء البغض والكراهية لشخص العاصي حتى بعد إقلاعه عن المعصية. وهذا ما لا يرضى به الله ورسوله، بل الذي جاء به الدين الحق نقيض ذلك.

فإن قلت: فإن كان الأمر كما تقول، ففيم شرع مقاتلة الكافرين، والكفر أخطر أنواع المعاصي؟ وكيف يتأتى أن يشرع الله قتال الجاحدين مع الرأفة بأشخاصهم؟

قلت في الجواب: لقد أوضحت في كتاب «الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه» ما هو الحق عند جمهور الفقهاء من أن مشروعية قتال الجاحدين والكافرين، ليست بسبب كفرهم من حيث هو، وإنما بسبب العدوان المتلبس بسلوكهم، والمتمثل في مبادءة المسلمين بالقتال، أو في التخطيط لذلك. والعدوان يُشرع درؤه، بل يجب درؤه. فإن لم يبدُ من الكافرين مبادَءةٌ بعدوان، أو تخطيط له، فإن التوجه إلى قتالهم يصبح اعتداء. وقد نهى الله عنه بصريح القول إذ قال:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

وقد افتتح البيان الإلهي سورة الممتحنة بقوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١].

ثم ضبط البيان الإلهي هذا النهي، وقيده بقيوده التي لا تتعارض مع الحقيقة التي نبيّنها ونؤكدها مقرونة بدلائلها في صدد بحثنا هذا، فقال:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٨-٩].

إذن فقد أصبحت مشروعية الجهاد القتالي، طبقاً لما دلت عليه هذه الآيات، منسجمة مع ما تم بيانه وتأكيده من أن الرسالة التي بعث بها الرسل والأنبياء إلى أقوامهم، والتي بعث بها محمد ﷺ إلى أمته عامة، إنما نهض إبلاغهم لها وتذكيرهم بها على أساس الرأفة بهم والعطف عليهم، ولا يصدر كل من الرأفة والعطف إلا من قلب محب لمن يتوجه بهما إليه.

فإن بقيت غاشية من الاستشكال في فكرك تقصيك عن الاقتناع بهذا التوفيق، فأنصحك بقراءة بحث الجهاد القتالي مفصلاً في كتابي «الجهاد، كيف نفهمه وكيف نمارسه».

❁ ❁ ❁

ثم لا تنس أنني قلت في فاتحة حديثي عن حب الإنسان لأخيه الإنسان: إنه من نتائج حبه لله تعالى، إن كان هذا المحب ممن له حظ وافر من محبة الله.

إذن فكل ما ذكرته تحت هذا العنوان، مقيد بهذا الشرط.

فأما الذي لم يكن له حظ وافر من محبة الله، فهو غير مشمول بشيء من الكلام الذي ذكرناه.

إن القلب الذي يتجه بالحب إلى الأغيار، أياً كانت: أناسيّ أو زخرفاً من زينة الحياة الدنيا، وهو خال عن محبة الله عز وجل، فلا ريب أن حبه لأخيه الإنسان يكون وبالاً عليه، وحجاباً يقصيه عن الارتباط بالله. كذلك حبه للأغيار الأخرى، ولا شك أن هذا الارتباط إن وجد، فإنما هو ارتباط عقلي مجرد.

ومثل صاحب القلب الخالي عن محبة الله، ذاك الذي لا يخلو قلبه عن مشاعر حب لله تعالى، ولكن حبه للآخرين أياً كانوا رجالاً أو نساء أشدّ قوة وأكثر تأثيراً.. إن مما لا ريب فيه أن الحب الأقوى أو الأعتى يقضي أو يتغلب على ما دونه.

وكثيراً ما يكون هذا الحب سبباً لضلال أصحابه، وموجباً لانزلاقهم في مهاوي الرذيلة والهلاك. كم من زوج أهلكه الانقياد لزوجته بدافع حبه الأقوى لها من حبه لله عز وجل، وكم من آباء تحملوا تبعات أولادهم وسيقوا إلى نتائج انحرافاتهم، بسائق مثل ذلك الحب، وكم من خليل ساقه خليله إلى مطارح الشقاء والهلاك، تحت سلطان الحب الأشد قوة والأكثر تأثيراً.

إن سببية الحب للشقاء والهلاك الديني، كثيراً ما يكون أقوى من سببية الشبهات العقلية والأحابيل الفكرية للوقوع في براثنهما.

وعن هذا الحب الذي هو الداء بعينه وعن آثاره المشقية، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٧-٢٩].

وتحذيراً من الانزلاق في هذه المهلكة، وإيقاظاً للحوافز ألا تدنو إلى مكان الخطر منها، يقول الله تعالى منذراً ومهدداً:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

حب الإنسان لمتاع الدنيا؟

علمنا مما سبق بيانه أن حب الإنسان لأخيه الإنسان، يمكن أن يكون ثمرةً لحب كل منهما لله تعالى، بل هو في الواقع كذلك عندما يكون لكل منهما نصيب وافر من محبة الله.

ولكن أرأيت إلى محبة الإنسان لزخارف الدنيا وأمتعتها ومشتهياتها، هل يمكن أن تكون هي الأخرى ثمرة لحب الله عز وجل؟..

بوسعنا أن نستلهم الجواب عن هذا السؤال من حديث البيان الإلهي عندما يقوم محبة الإنسان للإنسان، ويقوم بالمقابل محبة الإنسان لما يسميه: متاع الحياة الدنيا.

أما تقويم البيان الإلهي لعلاقة الإنسان بالإنسان، فقد رأيت مما مضى بيانه أنه يقوي من أزرها ويدعو إلى تغذيتها بالبر وصلة القربى، ويدعو إلى تمتين العلاقة بينهما بمختلف الوسائل الإنسانية التي تنمي الحب وتمتن الإخاء. ومن خلال ذلك اتضحت لنا حقيقة الحب في الله.

وأما تقويم البيان الإلهي لعلاقة الإنسان بمتاع الحياة الدنيا، فينتهي إلى التحذير من التعلق به والركون إليه، ومهما بحثت

وفتشت، فلن تجد في كتاب الله آية يبارك فيها هذه العلاقة، بحيث يشجع الإنسان على فتح نافذة من قلبه لمحبته، بل تجد فيه التحذير تلو التحذير من التعلق بما يسميه متاع الحياة الدنيا.

تأمل في المعنى الذي يتضمنه قول الله تعالى:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧].

وانظر في قوله عز وجل:

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤/٧٧].

وقف وقفة تدبر مع قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٢٠/١٣١].

وتأمل في قوله عز وجل:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٦٠].

ولكن هل المطلوب بناء على هذا التحذير المتكرر، أن يقطع الإنسان علاقته بمتاع الحياة الدنيا: أموالها، مزارعها، قصورها، مآكلها، وكل ما يدخل تحت اسم زينة الحياة الدنيا منها؟

ظاهر ما تدل عليه هذه الآيات وأمثالها أن هذا هو المطلوب.

ولكن في القرآن طائفة أخرى من الآيات، تدعو إلى التعامل مع ما سماه «متاع الحياة الدنيا» من مختلف مظاهر الزينة والطيبات وما تزخر به الأرض من خيرات.

من ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢].

ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

إن اللام في قوله تعالى «لكم» لام الاختصاص، فالمعنى: هو الذي خلق كل ما في الأرض من أسباب العيش ومظاهر المتعة من أجل الإنسان وفي سبيل تحقيق أسباب رخائه ورغد عيشه.

ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧].

فكيف السبيل إلى الجمع بين هاتين الطائفتين من الآيات، وقد علمنا أن بيان الله تعالى مبرأ من التناقض، وأيقنّا أن إخباراته وأحكامه متساوقة متآلفة؟

كيف يتأتى للإنسان أن يستيقن بأن الدنيا بكل ما فيها متاع باطل وظلٌّ زائل، ووهم لا يجوز الانخداع به، ثم يقبل عليها مع ذلك متتبعاً نعيمها مستفيداً من ذخرها، يبني لنفسه من باطلها

وسرابها قصوراً شامخة، وينشئ من متاعها الزائل جناناً وارفة؟

والجواب بيّن وواضح لمن التزم المنهج الذي يجب اتباعه في تفسير نصوص القرآن والوقوف على مقاصدها، ومن أبرز قواعد هذا المنهج ألا يفسر أي من هاتين الطائفتين من الآيات إلا في ضوء الطائفة الثانية، فلا يجوز التأمل في معنى أي منهما بمعزل عما تدل عليه الطائفة الأخرى.

إن المعنى الذي تنطق به هاتان الطائفتان من الآيات معاً هو: أن على الإنسان أن يمارس أسباب عيشه الضروري والحاجي والتحسيني، بدافع وظيفي مجرد، وبوحي استشعار المسؤولية، لا بدافع من التعلق أو التعشق النفسي بها. أما المطلب الأول فتدل عليه الطائفة الثانية من الآيات، وأما المطلب الثاني، وهو مطلبٌ تحذيري، فتدل عليه الطائفة الأولى منها.

ولن يتحقق هذا المعنى بشطريه إلا بعد أن يتخذ الإنسان الوسائل الممكنة لاجتثاث محبة الدنيا، بكل ما تشمله هذه الكلمة، من قلبه، وبعد أن يستقر في مركز اليقين من فؤاده تفاهة مغرياتها، وخطورة الاغترار بها.

وهذا ما تكفلت به الطائفة الأولى من الآيات، لكل من تدبرها مؤمناً بأنها خطاب من الله لعباده، إذ هي تؤكد بأساليب شتى بأن كل هذا الذي يبرق في العين مرآه، وتستهوي النفس لذته، من زينة الحياة الدنيا وزخارفها، إن هو إلا سراب باطل، وظلٌّ زائل، وخيال عابر، وأنه أشبه بالرؤى التي يمرّ بها النائم.

فإذا تدبر المؤمن هذا التأكيد الرباني المتكرر، ووعى التحذير الإلهي من الركون إلى زينة الحياة الدنيا والانخداع بها، فإن فؤاده (وقد حصنه بيان الله تعالى) لن يقع في أسر شيء من مغريات الدنيا ومتاعها، وستتحرر نفسه من بلاء التعلق بها والتعشق لها، بل سيجد نفسه مدفوعاً إلى الإدبار عنها وإلى نفض يديه منها، يقيناً منه بكلام الله، وتأثراً منه بتبشيع الله لها.

فإذا أقبل الخطاب الإلهي، بعد ذلك، لهذا الإنسان، يأمره باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم، واتخاذها مطية في طريقه إلى النهوض بالوظيفة التي كلف بها، فسيقبل على أشياء الدنيا ومتاعها وأجهزتها، وسائر المعايش التي فيها، إقبال من قد كلف بأمر، فهو ينشط في سبيل إنجازه، بقطع النظر عن الوسائل المستخدمة في الطريق إلى ذلك.

صحيح أن من شأن النفس البشرية، إذا ذاقت ملذات الدنيا ومارست نعيمها، أن تهفو إليها، ثم تتعلق بها، وأن يتبدد في ضرام التعلق النفسي تدبير الفكر وقرار العقل، ولكن هذا يمكن أن يتم بالنسبة إلى من لم يفهموا بعدُ حقيقة الدنيا، وقيمة المكونات التي فيها، أو فهموها ولكن من مصدر غير موثوق به، أو بطريقة عقلانية مجردة، أي بعيداً عن سلطان العواطف والوجدان الذي يركز عليه البيان الإلهي، بمقدار ما يركز في ذلك على الميزان العقلي.

ولكن الخطاب القرآني الذي يقبل إليه من سبق أن آمن بوجود الله ووحدانيته وآمن بأن القرآن كلامه، يخاطب كلاً من

العقل والوجدان معاً. إنه يظل يؤكد بأساليب تربوية شتى أن الدنيا مهما تَفُرْ بمظاهر المتعة وأسباب اللذة، فإن على كل عاقل أن يدرك بأنها حلم يوشك أن ينقضي، وبأن نعيمها سيتحول إلى غصص تأخذ بالنفس وبالحلق، وأن على كل ذي رغبة ألا ينسى بأنه إن ترفع اليوم فوق هذه المتع الفانية، واستخدمها أداة لتحقيق المصلحة الإنسانية العامة، فإن له في الغد القريب كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، في حياة خالدة لا انقضاء لها ولا تحوّل عنها.

فإذا تدبر الإنسان المؤمن بالله هذه التبصرة التي تخاطب كلاً من العقل والوجدان معاً، فإنه يتمتع من ذلك بمناعة تحجزه عن الانسياق العاطفي وراء مغريات الدنيا وأهوائها. ومن ثم فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ألواناً، ومهما لاح أمامه بريقها على البعد أو القرب، فسيبقى كل من أفكاره وعواطفه مشدوداً ومتجهاً إلى النعيم الحقيقي الأكبر الذي يعده الله به، وستظل نفسه مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٣].

وأمام هذا الاستعداد يحين له أن يدرك ما تأمره به الطائفة الثانية من الآيات، وأن يجد سبيله الآمن إلى معافسة الدنيا والتقلب في أسواقها ومعايشها، دون أن تنال من عواطفه المحصنة ضدّها شيئاً، أي دون أن يسري شيء من عوامل حبها والتعلق بها إلى مكمن العواطف من كيانه. إنه يمارس الدنيا ومتعها

عندئذ ممارسة الحاكم عليها، المستخدم لها طبق نظام معين، وضمن حدود مرسومة، ومن أجل الوصول إلى هدف عالٍ مقدس، في حين أنها، أي الدنيا، لن تستطيع أن تسكره، فتستخدمه وتستبعده ثم تطوح به.

فهذا هو المعنى التربوي العظيم الذي يتجلى لك في تلاقي هاتين الطائفتين من الآيات، المتعارضتين، بل المتناقضتين فيما يبدو. أولاهما تبرز تفاهة المتع والرغائب الدنيوية وتحذر من الانخداع بها والركون إليها، والأخرى تدعو إلى التعامل معها وأخذ الحظ منها، والتحذير من الفرار منها والانعزال عنها.

فأما الطائفة الأولى فطهرت النفس من الاغترار بها والتعلق بها. وأما الطائفة الثانية فوضعت صاحب هذه النفس على فم الطريق الآمن من غوائل النفس، المعبد والمستنير بدلائل العقل، الموصل إلى التعامل الأمثل مع المعايش ومظاهر الحياة الدنيا، من منطلق إخضاعها وسوقها تحت نبراس الرشد والدين، لا من منطلق تحكمها بالعواطف وهيمنتها على النفوس.

❀ ❀ ❀

لعلك تقول: أفليس من سبيل إلى عقد رابطة بين الإنسان المسلم، وزخارف الدنيا ومعايشها على أساس الحب في الله، قياساً على الرابطة التي جاز أن تتم بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الحب في الله؟..

وأقول في الجواب: إن بين الإنسان وأخيه الإنسان جامعاً مشتركاً يتمثل في عبودية كل منهما لله. والمأمول أن ينبثق من هذا الجامع المشترك بينهما تعاون للسير على النهج الذي يرضي الله، وتعاون لتذليل العقبات التي قد تصد عن تطبيق أوامر الله.

أما ما بين الإنسان ومتاع الحياة الدنيا، فمجرد صراع ما بين الفطرة المتجهة بالحب إلى الله، في كيان الإنسان، وهوىً يحاول اقتحام القلب بحثاً عن مستقر فيه ينافس بل يزاحم محبة الله. فأنى وكيف تنقدح بين الإنسان ومتاع الدنيا، مشاعر الحب في الله؟

إن الطريق إلى استخدام المعايش الدنيوية لما يرضي الله إنما هو العقل منضبطاً بضوابط الشرع، فإن تحولت عنه إلى طريق العاطفة والحب، حجبت بذلك عن بصيرة الدين، وغدا الشرع هو المستَخْدَم لسلطان الحب وهو المنفذ لرغائبه.

❁ ❁ ❁

ومع ذلك فإن الشارع جل جلاله رخص للإنسان أن يستبقي زاوية أو جانباً من قلبه لمحبة رغائبه وأهوائه الدنيوية المتنوعة المباحة، على أن تكون مستهلكة أو مغلوبة عند التعارض تحت سلطان محبة الله، كي يتغلب في تلك الحالة على أهوائه ورغائبه الدنيوية.

تأمل.. تجد هذا الترخيص جلياً في قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥].

لم يقل: والذين آمنوا لا يحبون إلا الله، مع أن الإيمان الكامل يستلزم ذلك، ولكنه قال: والذين آمنوا أشدّ حباً لله، أي لهم أن يوسعوا في قلوبهم أماكن لمحبّة أهوائهم ومعايشهم، ولكن على أن يكون حب الله هو المتغلب وهو الأقوى دائماً.

وانظر.. تجده جلياً أيضاً في قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

إن كلاً من الآيتين يعلن عن أن الله تجاوز، لعباده، عما انطوت عليه نفوسهم من محبة الدنيا ورغائبها، على ألا تكون إليها الحاكمية على أوامر الله وشرائعه.

ولكن إذا تكامل إيمان الإنسان بالله، واصطبغ كيانه بصبغة العبودية الضارعة له، نظف قلبه من التعلق بالأغيار أياً كانت، ويتجاوز الرخصة في مشاعره وسلوكه إلى العزيمة.

بقي أن ألفت النظر إلى شيء بالغ الأهمية ينبثق من هذه التربية الإلهية إذ تغرس في نفس الإنسان تفاهة الرغائب الدنيوية وتصور له بشاعتها، وتقنعه بضرورة عدم الركون إليها، ثم تدعوه، بعد ذلك، إلى أن يستخدمها ويتعامل معها، على الرغم من تفاهتها وعدم جدواها.

إن الالتزام بهذه الوصفة التربوية الربانية، هو الضمانة لاستقرار الحضارة ورسوخها، ضد عوامل إضعافها والقضاء عليها، وهو السبيل الذي ينجيها من طائلة القانون الوهمي القائل بأن للحضارات أعماراً كأعمار الأشخاص، تسري من الطفولة إلى الشباب.. فالكهولة فالشيخوخة فالاندثار.

ألا فلنعلم أن كل ما على الأرض من خير، وأن كل ما في باطنها من ذخر، أداة، وأي أداة لعمارة هذه الأرض على أفضل وجه، ولكن الشرط الوحيد لذلك ألا يمارس الإنسان هذه الأدوات إلا بعد أن تفرغ نفسه من غوائل التعلق بها، فيقبل عليها عندئذ إقبال من امتلأ شبعاً إلى طعام يبيعه أو يتاجر به.

ألا ترى إلى الرجل يضع بين يديه أطباقاً من الحلوى يبيعها ليستغني بأثمانها. إن الشرط الذي لا بدّ منه لذلك ألا تهفو نفسه إلى تلك الأطباق، وألا يسيل لعابه عليها وألا يتشهّاها كلما نظر إليها. فأما إن كانت نفسه تندلق عليها، ولا تصبر عنها، فهو يتذوق منها بين كل حين وآخر، ويتخذ منها إفطاره إذا أصبح، وغداءه إذا أضحى، وعشاءه إذا أمسى، فإنه لن يعود من مسعاه إلا بالخيبة والخسران، وسيضيع كل من جهده وماله معاً.

إن أكثر الدول والشعوب غافلة عن هذه الحقيقة، ومن ثم فهي تسعى إلى بناء مدنياتها وحضاراتها، بدافع من النهم النفسي أكثر من التدبير الفكري. ولا بدّ أن ينشأ عن مثل هذا السعي السباق بين

أصحاب الدوافع النفسية المتشابهة، ولا بدّ أن ينشأ عن السباق الصراع، فالخصومات والحروب.

لذا فإنك لا تكاد تجد أمة سعت إلى بناء حضارتها من هذا الطريق، إلا وشغلت يداً واحدة لها بإنشاء الحضارة وتوفير أسبابها، بينما انصرفت بيدها الأخرى إلى إيقاد نيران العداوات والبغضاء بينها وبين الآخرين.

وقد تنجح هذه الأمم أخيراً في إنشاء حضاراتها من خلال سباقها اللاهث، ولكن لا بدّ أن تحمل تلك الحضارات في أعماقها - منذ أيامها الأولى - عوامل فنائها، وذلك طبقاً للمراحل التالية التي لا بدّ أن تمرّ بها سائر الحضارات الجانحة. وإليك صورة سريعة عن تتابع هذه المراحل.

- تتفتح أمام تلك الأمم أبواب الثروات والغنى، فتتقلب من ذلك في دنيا اللذائذ والأهواء.

- ثم ما هو إلا أن تستمرئها وتركن إليها، وتطوف برؤوسها من ذلك سكرة النعيم، وتتقاذفها حياة الدعة والترف، فينسيها ذلك واجب النهوض بأعبائها الجسام، من سدّ الثغرات وحماية الممتلكات.

- فما هو إلا أن يتبين الرقباء من أعدائها، سواء في الداخل أو الخارج مظهر هذا الضعف فيها ومستقر هذا المرض من بنيتها، فيتوكؤون عليه، ويتخذون منه غرضاً لسهامهم ومبعثاً لنيرانهم.

وأساليب ذلك معروفة واضحة، رددها التاريخ على أسماع المعتبرين مراتٍ ومرات.

والمصير الذي لا بدّ منه، على أعقاب ذلك، هو أن يستشري فيها الضعف فالذبول، ثم يحيق بها الموت والدمار.

فتلك هي الجرثومة الوحيدة التي تفتك في جسم الحضارات الجانحة، وبها، دون غيرها، تمرض ثم تموت.. هكذا زالت حضارة الرومان، وهكذا قضي على حضارة الفرس، وهكذا دالت دولة بني الأحمر في الأندلس، وهكذا تقوّض عرش القياصرة في أقصى الشرق، وعلى الدرب ذاته تسير اليوم حضارات جانحة، تحمل الجرثومة ذاتها، نحو الزوال والانمحاق.

والمهم أن تعلم أن هذه الحضارات لم تفاجئها عوامل الضعف والانهيار من خارج بنيانها، بل نشأت معها بذور هلاكها وعوامل دمارها من ذاتها ومنذ يوم ولادتها.

وتتمثل هذه البذور والعوامل، في أن رجالها لم يقبلوا على استعمال مظاهر العيش وأسبابها الدنيوية بدافع من الفكر الوظيفي المتحرر من التعلق النفسي بها، بل أقبلوا إليها بسائق النهم النفسي والشهوة الغريزية، وما كانت الأفكار إلا أدوات مستخدمة في طريق تلك الرعونات. فكان ذلك مهاداً طبيعياً لاستفحال الداء الذي تحدثت لك عن سيره ومراحله وكيفية القضاء على أصحابه.

وهكذا استحال الغذاء، بسبب سوء استعماله إلى داء، وغدت مظاهر القوة والغلبة هي نفسها عوامل الضعف والهزيمة، وتحولت أبنية كانت قصوراً باذخة بالأمس إلى قبور مظلمة اليوم.

فما أشبه قصة أصحاب الحضارات الجانحة عن المنهج التربوي الرباني الذي تبينته الآن، بقصة الإنسان الشره النهم، يقوى بصنوف الطعام والإكثار منها أولاً.. ثم إنه يمرض بها ثانياً.. ثم يموت بها ثالثاً. مع أن الطعام هو هو في فائدته للجسم وحمايته له من عوادي الأمراض وعوارض الهزال، ولكن سوء الاستعمال يودي بصاحبه إلى سوء المصير.

وهكذا رأينا قرار القرآن بمحبة الإنسان لأخيه الإنسان، ورأينا قراره بأن محبة كل منهما للآخر ينبغي أن تكون ثمرة محبتهما لله.. بل هي في الواقع كذلك، إن كان لكل منهما حظ وافر من محبة الله عز وجل.

أما محبة الإنسان لرغائب الدنيا وشهواتها المتنوعة، فلن تكون إلّا حجاباً يصدّ عن ذكر الله ومراقبته، ومن ثم فلن تكون إلا عائقاً عن محبة الله عز وجل.

ولكن إذا كان لا بدّ للإنسان من التعامل مع متاع الدنيا ومشتهياتها، لعمارة الأرض وإقامة المجتمع الإنساني السليم، فليكن إقباله إليها وتعامله معها بدافع من العلاقة الوظيفية، كشأن الذي يلجأ إلى استخدام آلات وأجهزة معينة لا مندوحة عنها، لإنجاز صناعة أو أداء مهنة. ولا ريب أن المقبل إليها لأداء صناعته

لا يتعلق بها بدافع تعشق أو حب، وإنما يستخدمها لدى الحاجة ثم يلقيها أرضاً ويمضي.

ولكي يتحقق هذا، فتصبح علاقة الإنسان بأشياء الدنيا وأمتعتها علاقة استصناع بها واستخدام لها، كان لا بدّ أن يبين الفاطر الحكيم جل جلاله، تفاهة الرغائب والمشتهيات الدنيوية، وأن يؤكد للإنسان أنها إلى الأوهام أقرب، وأنها سراب آيل إلى الزوال، كالنبات الذي يخضر زاهياً صباحاً، ثم يذبل ضحى، ثم إنه ييبس وتذروه الرياح مساء.

إذن فمن الممكن، بل من المطلوب أن يكون حب الإنسان للإنسان ثمرة لحب الله، ولكن هيهات أن يكون حب الإنسان لمتاع الدنيا ثمرة لحب الله. ومع ذلك فإن تعامل المسلم مع زهرة الحياة الدنيا ومتاعها مطلوب ومشروع.

❀ ❀ ❀

ثانياً

دور الحب

في حياة الإنسان

الإنسان ثنائي التركيب

إذا استثنينا هذا القفص الجسدي الذي هو الشيء الوحيد الذي يتراءى لنا من كيان الإنسان، فإنه يتكون من حقيقتين اثنتين مجردتين، هما العقل المدرك للأشياء، والعاطفة التي هي مناط حبٍّ أو بغضٍ للأشياء.

والقرار الذي انتهى إليه جُلّ العلماء، أن مكان العقل المدرك من كيان الإنسان، هو الدماغ، وأن مكمن العاطفة من كيانه هو القلب.

غير أن التعبير الأكثر دقة، أن يقال: إن الدور في كل ما يتعلق بالإحساس والإدراك والعاطفة، إنما هو للروح التي هي - كما علمنا - سرّ من أسرار الله تعالى، ينعكس على خلايا الجسد ويسري فيها، فيتكون من ذلك الإحساس، وينعكس على الدماغ فيتحقق من ذلك الوعي والإدراك، وينعكس على عضلة القلب فتنبثق من ذلك العواطف الدافعة والرادعة والممجدة، أي الحب والكراهية والتعظيم.

إذن فبوسعنا أن نعلم أن الروح الإنسانية هي التي تتمتع بمقومات الإدراك والعلم، وهي التي تمدّ الإنسان بحقيقة الإحساس

والشعور، وهي التي تمد الكيان الإنساني بالحب والكراهية والتعظيم.. فلم يبق إذن تحت اسم (الإنسان) إلا صورة اللحم والدم والعظام.

ولا يصرفنك عن اليقين بهذه الحقيقة ما قد تقرؤه أو تسمعه من بعض المفتونين بألفاظ العلم والفقراء إلى مضمونه، من أن الإدراك إنما ينبثق من حجيرات الدماغ، إذن فالعقل ثمرة لحقيقة مادية، وأن العواطف المتنوعة إنما هي من مفرزات الحاجة المادية المتراكمة في كيان الإنسان، وأن الإحساس ليس إلا من معطيات الحياة، والحياة تنشأ من الحركة فالحرارة بالإضافة إلى عناصرها المادية، كالادروجين والكربون والآزوت والأكسجين.. إلخ.

وربما استشهدوا على هذا الهراء بما هو معروف من أن الدماغ إن أصابه عطب فسدت عملية الوعي والإدراك، وأن الطفل قبل أن تنشأ لديه مشاعر الاحتياجات، لا تبرز في كيانه أي من العواطف الدافعة أو الرادعة أو الممجدة.

أقول: لا يصرفنك عن الحقيقة التي أوضحتها لك شيء من هذا الوهم الذي قد يطلقون عليه اسم العلم، ولا تخدعنك الحجج الباطلة التي تساق دليلاً عليها؛ فإن الشاشة المثبتة على الجدار إن أصابها عطب فسدت فيها هي الأخرى الصورة الظاهرة عليها، ومع ذلك فالشاشة ليست إلا جهاز استقبال، وجهاز الإرسال شيء آخر. والطفل الصغير لا يدرك حاجاته بعد، ومع ذلك فهو كتلة من العواطف التي تقوده إلى مصالحه من حيث لا يشعر. وقد أقبل من

جمع سائر عناصر الحياة المذكورة في مزيج ووفَّروا فيه الحركة فالحرارة، ولكن الحياة لم تتكون منها. وعاد الباحثون والمجربون إلى اليقين بأنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يقول شيئاً بخصوص أصل الحياة(١).

إذن أعود فأؤكد بأن الإنسان - باستثناء كيانه الجسدي - ثنائي التركيب؛ إنه عبارة عن عقل يدرك ووجدان يحب ويبغض. غير أنا إن أردنا أن نكون أكثر دقة في التعبير، وجب أن نقول: إن الإنسانية الكامنة داخل هذا الوعاء الجسدي، ليست أكثر من الروح السارية في أجزائه، وإنها لقائمة داخل هذا الوعاء، بوظائفها الثلاث التي ذكرناها قبل قليل.

وحديثنا في هذا الفصل غير معنيّ بالإحساس الذي تبثه الروح في خلايا الجسم السارية فيه، وإنما الذي يعنينا من وظائفها كل من الوعي وما يتفرع عنه من علم وإدراك، والعاطفة وما تنقسم إليه من حب وكراهية وتعظيم. على أن الذي يعنينا هنا من أقسام العاطفة، الحب دون غيره.

(١) هذا ما يقوله شريك ماركس في وضع الفلسفة المادية، إنجلز، في كتابه: ضد دوهرنغ ص ٩٠، وانظر كتابي: نقض أوهام المادية الجدلية ص ١١٠.

أثر كل من الحافز العقلي والعاطفي في سلوك الإنسان

لا ريب أن مردّ السلوك الإنساني، على اختلافه وتنوعاته، إلى كل من العقل والوجدان.

ولكن كيف يتقاسم العقل والوجدان عمليات القيادة للإنسان؟ كيف يتم التنسيق بينهما في إصدارهما الأحكام والسلوك؟ وهل يتم التنسيق بينهما في ذلك فعلاً؟..

والجواب أن دور العقل في ذلك محصور في الكشف والدلالة، فهو أشبه ما يكون بالدور الذي تؤديه المصابيح المثبتة في مقدمة السيارة. أما العاطفة فدورها يتمثل في الدفع إلى السلوك، فهي أشبه ما تكون بالوقود الذي في داخل السيارة.

ولكن هل هناك تنسيق بين دوري كل منهما؟ هل السلوك الذي تدعو إليه العاطفة هو دائماً ما سبق أن قرره العقل؟

ليس ثمة تنسيق بالضرورة بين هاتين القيادتين في كيان الإنسان، وإنما يتبع الأمر في ذلك الظروف التي قد توجِدُ قيادة ثالثة في الساحة، تكون إليها مهمة التنسيق والتوفيق بين قيادتي العقل والوجدان، وأعني بالقيادة الثالثة التربية التي تلجأ إليها المجتمعات

المتحضرة منذ فجر الوجود الإنساني. وهي، كما نعلم، اتخاذ الوسائل الكفيلة بإخضاع العاطفة لقرار العقل وحكمه الصحيح.

وعندما لا تكون قيادة التربية المثلى متوافرة، ولا تكون سلطة القوانين ماثلة حاكمة، ولا تكون أدبيات الأعراف مهيمنة، فإن العاطفة المتمثلة في الحب والكراهية غالباً، تصبح هي المستبدة بقيادة صاحبها، ويضيع صوت العقل في ضجيج الرعونات والأهواء.

وأقول: **غالباً**، لأن التجارب العاطفية التي زجت أصحابها في مآسِيَ أو خسارات أو في ما نسميه خيبة آمال، تقوم مقام التربية المثلى، وتمنع أصحابها من أن يعودوا الكرة إلى ما قد أذاقهم اللوعة والخسران.

فإذا لم تتوافر التربية الراشدة، وغابت سلطة القوانين الحاكمة، وتفككت عرا العادات والأعراف المهيمنة، ولم يمرّ الناس بعدُ بتجارب تقوم مقام التربية في حياتهم، فإن كل ما يصدرون عنه من اتجاه وسلوكات يكون بدافع من عواطف الحب أو الكراهية، وهي على الأغلب تكون مخالفة لقرارات العقل وأحكامه.

فإن قلت: أليست عاطفة الخوف، ثمرة لما يقرره العقل ويجزم به؟ يجزم العقل بما يحمله تناول الحلوى من ضرر للمريض بارتفاع نسبة السكر لديه، فتتلقى العاطفة هذا القرار بالخوف من الإقدام على تناول هذا الطعام، فيعرض المريض عن تناوله ويبتعد عنه؟ إذن فالعاطفة هنا أصبحت مجندة لتنفيذ قرار العقل.

أقول في الجواب: كما أن الخوف يكون في بعض الأحيان مما يحذر العقل منه، فيكون بينهما توافق وانسجام، يكون أيضاً في أكثر الأحيان مما يدعو إليه العقل ويسوغه، وهذا هو الغالب.

ونظراً إلى هذا القانون الفطري في حياة الإنسان، والمتمثل في هيمنة العاطفة غالباً على العقل، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يقاد الإنسان إلى وظائفه الإنسانية التي أقامه الله عليها، كالزواج وتربية النشء وتناول الغذاء، وحماية الممتلكات.. بنوع من الحب لها، بحيث يتغلب على ما في تحمل تلك الوظائف من الكراهية والأتعاب. فتنسجم الرغبة عندئذ مع الوظيفة والواجب، دون حاجة إلى وسائل تربوية، أو إلى ملاحقة قانونية.

أرأيت إلى النكاح وحقيقته وآثاره، لا ريب أنه مما تعافه النفس الإنسانية والطبيعة البشرية، لولا هذه المتعة الفريدة التي بثها الله فيها فجعل النفوس تقبل إليها بدلاً من الاشمئزاز والفرار منها. تصور عملية التقارب الجنسي، لو لم يمزجها الله بهذه النشوة الفريدة من نوعها، إذن لرأيت أنها أبشع ما تشمئز منه النفس ويترفع عنه الذوق، وإذن لما أقبل أحد إلى أداء هذه الوظيفة. فكان السبيل الذي ألجأ اللهُ الإنسان إليها، هذه اللذة التي جعلت من الحب مؤيداً للعقل والمصلحة، فانقاد الإنسان من زمام هذا الحب إلى ممارسة هذا الذي تنأى عنه الطبيعة وتشمئز منه النفس، في الأصل.

أرأيت إلى رعاية الأم لطفلها الصغير، وإقبالها إلى النظر في كل شؤونه، والعناية بكل ما يتعلق به وسائر أحواله وما يتعرض له،

أما إنه لولا الحب الذي غرسه الله في فؤادها تجاه صغيرها هذا، لعافت أعمال خدمته خلال أربع وعشرين ساعة، ولأعرضت عنه وتركته لحاله ومصيره. ولرأيت أن العقل مهما قرر وجوب رعايته، ومهما لفت النظر إلى المصالح الاجتماعية المترتبة على أداء هذا الواجب، ومهما حذر من المفاسد التي تترتب على إهماله، فلن يجد ذلك كله من الأم أذناً صاغية.. فكان من مقتضى الحكمة الإلهية إذلال الأم لقيادتها إلى هذه الوظيفة بزمام الحب والعطف اللذين غرسهما الله في نفس الأم تجاه صغارها.

وما نقوله عن وظيفة الأم هذه، نقول مثله عن وظيفة الأب تجاه الواجب ذاته.

أرأيت إلى الغذاء وأنواعه، إنه شرط لابدّ منه، لبقاء العافية وتماسك الكيان، وتنامي القوة. وإنها لوظيفة شاقة لو تأملت فيها مفصولةً عن الرغبة التي تقود النفس إليها، وعن اللذة التي يجدها الإنسان عند تناوله للغذاء، وقيامِه بهذه الوظيفة التي أنيطت به.. فكان من مقتضى الحكمة والرحمة الربانية، أن مزج هذه الوظيفة الشاقة في إعدادها، والمتعبة في ممارستها، باللذة التي يجدها أحدنا في تناولها، ومن ثم يجد المتعة في الإعداد لها. وهكذا يقاد الإنسان إلى هذه الوظيفة أيضاً بزمام الحب.

أرأيت إلى المال والعمل على جمعه، واستخدامه في إشادة المصانع وبناء المعامل، واستحداث المزارع، إنه لجهد يستنزل صيّب العرق ويبعث على التغرب وسهر الليالي، والحرمان من

فرص الراحة والاستجمام. غير أن القيام بأعباء هذه الوظيفة لما كان ضرورياً لعمارة الأرض ونشأة المجتمعات الإنسانية على نهجها السليم، اقتضت حكمة ربنا جل جلاله أن يقذف في أفئدة الناس حب المال، وحب التجارة به، والرغبة في إقامة المنشآت الاقتصادية المتنوعة، بحيث يتغلب سائق هذا الحب على داعي القعود والكسل والتثاقل عن النهوض بتلك الوظائف.

لعلك تقول: فإن كان الأمر كما تقول، فهلا اقتضت الحكمة الإلهية قذف محبة النهوض بالعبادات الشاقة والقربات الدينية المختلفة، في أفئدة المكلفين بها، تهويناً لنهوضهم بها وتحقيقاً للمصالح المترتبة عليها.

والجواب عن ذلك يتلخص في أن الفائدة التي يجنيها الإنسان من العبادات التي أمره الله بها، إنما هي المثوبة والأجر. والمسوغ لنيل المثوبة إنما هو قبول الجهد الذي يجده العابد لدى الاستجابة لأمر الله له في النهوض بالعبادة التي كلفه بها، بقطع النظر عن وجود أي فائدة أخرى من وراء القيام بها.

فلو غرس الله في نفس الإنسان لذة القيام للصلاة في جنح الليل، ومتعه من ذلك بمتعة نفسية وجسمية تنسيه مشقة المجافاة عن الفراش، والانصراف عن النوم مع الحاجة إليه، بحيث غدا يمارس من ذلك لذة ومتعة يجدهما في القيام بهذه العبادة، إذن فهي لم تعد عبادة، بل هي واحدة من أمنيات النفس ورغائبها، ومن ثم فلا معنى للثواب عليها.

وهذا الجهد الذي يراه المسلم في الاستجابة للتكاليف التي خوطب بها من قِبَل الله هو الذي ميزه عن الملائكة وسما به فوقهم في المكانة والمرتبة عند الله عز وجل. ولو حرم الإنسان من الشعور بهذا الجهد، وحلّ في مكانه الشعور بالمتعة واللذة لدى النهوض بما طلب منه لهبط إلى مستوى الملائكة، ولحرم من المثوبة والأجر، ولبطل معنى التكليف وعاد مثلهم سواء بسواء.

ولعلك تقول أيضاً: فهب أن أمر العبادات والطاعات قائم على بذل الجهد والصبر على الشدائد في أدائها، حتى يستأهل الإنسان بذلك الأجر، فما بال العلاج الذي لا ينفك المريض عن الحاجة إليه، لا يستمتع به كما يستمتع بلذة الغذاء والمألوف من الطعام؟ وفيم يخترق إلى آمال الشفاء به مشاعر الكراهية والمرار؟

والجواب أن حاجة الإنسان إلى الغذاء فطرة دائمة مستمرة، وحاجة استمرار السلالة الإنسانية جيلاً بعد جيل فوق هذه الأرض، إلى التزاوج والنكاح ورعاية الكبار للصغار، هي الأخرى دائمة باقية. فلو غدا الغذاء الدائم الذي لا انفكاك للإنسان عنه كالدواء في الشدة والمرارة وكراهية الطبع له، لشقي الإنسان بأسباب بقائه، ولعانى من ضريبة مرهقة أشدّ في آلامها من لذة حياته.

ولو كانت وسائل الإنجاب مجرد جهد يُتَحمل في سبيل غاية، مع ما في هذه الوسائل من بشاعة الممارسة وعواقب الاشمئزاز، وما يتلوه من رعاية الصغار تغذية وتنظيفاً وسهراً، لعاف الناس، كل الناس، هذه الوظيفة التي ينبغي أن تلازمهم ملازمة الحياة.

أما الدواء الذي يتم اللجوء إليه حالة المرض، فلا تنس أن المرض عارض يُطلّ، وقد يبقى حيناً ثم يزول، فناسب أن يكون علاجه فيه طبيعة العلاج ومعنى الدواء. ومهما وجد المريض من شدته أو مراره، فلا ريب أنه أهون شدة وأخف مرارة من المرض واستمراره.

إن الشدائد التي قد تَعرِض للإنسان من مرض أو عدوان أو نحوهما، ليس الشأن فيها أن تعالَجَ بما هو نعيم ومتعة، بل إن المنطق لا يقبل ذلك، وإنما الشأن فيها أن تكافح بما هو كُرْهٌ إلى النفس، ويغني عن المأمول من اللذة المفقودة منها، اللذة التي يراها المكافح لدى النجاح في كفاحه، إن بصدّ العدوان أو بالشفاء من المرض، أو بالتحول من أسباب القلق والاضطراب إلى نعيم الطمأنينة والأمن.

العقل مصدر الإيمان
والحب مصدر الالتزام

من الملاحظ أن الله يَعِد عباده بسعادة العقبى وبالنعيم المقيم الذي لا انقضاء له، وبالصفح عنهم والمغفرة لهم، إن هم تحققوا بأمرين اثنين: الإيمان، والعمل الصالح.

ومهما تتبعت في القرآن صفات الذين وعدهم الله بهذه المكرمة، فلن تجدها تخرج عن الإيمان والعمل الصالح.

تأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧].

ثم اذكُرْ كم مرةً أعاد البيان الإلهي وكرر هذه العِدَة بأساليب شتى. ألم يقل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠].

ألم يقل مؤكداً تحقيق هذه المكرمة وتنفيذ هذه العِدة:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٩٧].

ألم يؤكد هذه العِدة قائلاً:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥].

وعاد فكررها قائلاً:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٧].

وصفوة القول أن الإيمان والعمل الصالح في القرآن قرينان لا ينفك الواحد منهما عن الآخر، وأن الذين رضي الله عنهم ووعدهم الحسنى، هم الذين جمعوا في حياتهم الدنيا بين هاتين الصفتين، وانظر، تجد كتاب الله تعالى يفيض بتأكيد هذه الحقيقة.

فأما المقصود بالإيمان فهو أن يحتضن العقل جازماً جميع حقائق الإيمان بالله. وأما العمل الصالح فهو السلوك الذي ينبثق عن حقائق الإيمان واستيلائها على العقل، وهو يشمل أركان الإسلام ومتمماته، وسائر الأعمال التي تعود إلى الناس فرادى وجماعات بالخير والفائدة، طبق ميزان الشرع وهديه.

إذا تبين هذا، فلنعلم أن مصدر الإيمان بالله عز وجل وما يتبعه من ذيول ومستلزمات وتتمات، إنما هو الإدراك بواسطة العقل. ولا يغني عنه أي بديل كاتباع الآباء والأجداد مثلاً، وكالانقياد لإكراه ذي بطش من الناس. وقد ذكر علماء

التوحيد أن التكليف بالإيمان يتعلق بمقدمات الإيمان وأسبابه، وهو التأمل وإعمال العقل والفكر، ولا يتعلق بالنتائج الضرورية التي ينفعل بها العقل عند ممارسة أسبابه. فالأمر بالإيمان مجاز عن الأمر باتخاذ أسبابه.

ويترتب على هذا أنّ من لم يتأت له إعمال الفكر والتعامل مع الأدلة التي هي سبيل الوصول إلى الإيمان، غير مكلف، لأن المكلَّف به غير موجود، وهو إعمال الفكر واتخاذ الأسباب الموصلة إلى الإيمان(١).

وأما النهوض بما سماه الله الأعمال الصالحة، فسبيله الحب، وربما قال بعضهم: أو الخوف. وسأذكر فيما يلي بتوفيق الله ما يدلّ على أن الخوف وحده لا يقود إلى المطلوب والمقبول من الله تعالى، حتى إن قاد في الظاهر إليه.

ولكن فلأبدأ بما يدلّ على أن مجرد الإيمان العقلي لا يقود صاحبه إلى الأعمال الصالحة.

وأساس الدليل على ذلك أن الإيمان بالشيء أياً كان، انفعال حتمي، لا سبيل للإنسان إلى إنكاره أو الفرار منه، إن قامت أدلته كاملة في العقل وزالت الشبهات الفكرية عن طريقه. أما النهوض بالأعمال التي يستدعيها ذلك الإيمان فخاضع للاختيار، منوط بالرغبة.

---

(١) انظر حاشية الكلنبوي على شرح جلال الدين الدواني: ١/ ١٩٠ طبعة إستانبول (العامرة).

وواضح أنني إنما أعني بالإيمان اليقين القلبي، أي العقلي، المهيمن على الفكر والإدراك، أما تحريك اللسان بما يدل عليه أو بما يكذبه، فتصرف اختياري، قد يصدق وقد يكذب صاحبه فيه. وصدق الله القائل:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤].

فإذا كان النهوض بالأعمال التي يتطلبها الإيمان بالله، خاضعاً للاختيار والقرار الذي يتخذه المؤمن، فلمن يستجيب صاحب هذا الاختيار، للحقيقة التي آمن بها عقله، أم للرغبة التي ينطوي عليها قلبه؟

لقد سبق أن أجبت عن هذا السؤال، تحت عنوان: أثر كل من الحافز العقلي والعاطفي في سلوك الإنسان. وقد علمت مما ذكرته إذ ذاك أن الاستجابة إنما تكون للرغبة التي ينطوي عليها القلب، لا للحقيقة التي يستيقنها العقل، وأطلت في بيان الدليل على ذلك.

وأقول هنا: إن مسألة الإيمان والكفر مشمولة بذلك القانون الذي تم بيانه. ألا ترى أن في الغربيين كثيراً ممن آمنت عقولهم بوجود الله واحداً لا شريك له، بل إنهم يطيلون في عرض أدلتهم العلمية على إيمانهم العقلي هذا، وينبهون منها إلى ما قد لا يعلمه كثير من أمثالنا، ولكنهم مع ذلك لا يستجيبون لشيء مما يتطلبه إيمانهم هذا، وسبب ذلك أن مكمن العاطفة في نفوسهم مستعمر بحب الشهوات والأهواء والرغائب المناقضة لمقتضى إيمانهم العقلي ذاك.

بل ما أكثر المسلمين الذين في بلادنا، ممن يكتبون الكثير في الدفاع عن حقائقه، ويذودون بأقوالهم ومحاضراتهم عن شرائعه وأحكامه، وتنظر إلى سلوك كل منهم، فلا تراه يدين لشيء من تلك الشرائع والأحكام، ولا تراه منحطاً في أعماله وتصرفاته إلا في نقيض ما تستدعيه تلك المبادئ التي يدعو إليها.

وقد علمتُ أن أحدهم قال في مجلس ضم ثلة من العلماء والمثقفين، وقد أخذت منه الحماسة الدينية مأخذها: صحيح أننا لا نصلي ولا نصوم ولا نلتزم بكثير من أحكام الإسلام، ولكننا لا نقصر في الضرب على يد من تسول له نفسه الإساءة إلى الإسلام.

وإنني لأؤكد أن حال هذا المسلم وأمثاله، منسجم مع المنطق وعوامل السلوك. وإليك بيان ذلك.

إن القلب، كما سبق أن قلنا، مكمن للعواطف والرغائب. وإنه لَكَلْمرآة، لا تخلو صفحته، أي القلب، من صور ورغائب يتشهاها ويحبها، فإن توجه القلب بمرآته إلى دنيا الشهوات والأهواء والرعونات، انطبعت توجهاً وحباً على مرآته، وإن توجه بمرآته إلى العالم العلوي متأملاً في رسائل الحب التي تتوالى دون انقطاع من الله إليه، وفي مظاهر إبداع الله ولوحات جماله، انطبعت هي الأخرى على مرآة القلب، فغابت على إثر ذلك الصور والأشكال والرغائب التي كانت مثبتة قبلها.

وأياً كانت الصور والأشكال والرغائب المثبتة على مرآة القلب، فإن قرار السلوك بيدها، والحكم في ذلك إليها.

ولولا هذه الحقيقة لما جعل البيان الإلهي محبة الله جزءاً من الإيمان بل أساسه، ولما أكد رسول الله ﷺ ذلك في كثير من أحاديثه.

وحسبك من الآيات المنبئة عن أهمية محبة الله، وعن خطر غيابها على الإيمان قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤]. وقد سبق ذكر هذه الآية المخيفة في مناسبة مرت.

ومن الأحاديث التي أكد فيها رسول الله شرط محبة الله ورسوله لسلامة الإيمان قوله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(١).

ومنها قوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي»(٢).

إن دور الحب في حياة الإنسان أنه إما أن يضع المقتضيات السلوكية للإيمان في حياته موضع التنفيذ، وذلك عندما يكون حبه لله ورسوله، وإما أن يفصل هذه المقتضيات السلوكية عن الإيمان،

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك.
(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

فيغدو إيمانه مشلولاً لا فاعلية فيه، وذلك عندما يكون حبه لمشتهياته ورغائبه الدنيوية.

ألا ترى إلى هذه الحقيقة كيف تبدو جلية في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

إن الظاهر المتبادر للذهن أن الذي يرتدّ عن الإيمان إنما يدعوه إلى ذلك ريب داخَل عقله في شيء من أركان الإيمان وحقائقه، فترسخ الريب في عقله، فانمحى إيمانه بالله بسبب ذلك.

ولكن الأمر لو كان كذلك، لما كان ثمة أي مناسبة لذكر الحب، ولما كان له أي دخل في الأمر، ولجاء البيان الإلهي على هذا النسق: «.. فسوف يأتي الله بقوم يتمتعون بيقين إيماني أرسخ» إذ هذا ما تقتضيه المقابلة، وما تدعو إليه المقارنة.

ولكن البيان الإلهي جاء على هذا النسق الذي تراه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

فدلّ ذلك على أن الذين يرتدون عن إيمانهم، بعد رسوخه يقيناً في عقولهم، لا يرتدون بسبب عارض زلزل ذلك الرسوخ وقضى عليه، وإنما يرتدون عنه بسبب غياب محبة الله عن قلوبهم، ومن ثم بسبب رسوخ محبة الأغيار واستقرارها على مرايا تلك القلوب، فيقادون بزمام ذلك الحب الدنيوي الهابط إلى حيث الردة والهلاك، وهي وإن لم تكن، ربما، ردّة في الظاهر،

وما ينطق به اللسان، فهي ردّة حقيقية ثابتة في طوايا النفس تظهر في النتيجة والمآل.

ولذلك أخبر بالمزية التي يتصف بها أولئك الذين يأتي الله بهم حالّين محلّ من ارتدوا عن دينهم واستمرؤوا الركون إلى أهوائهم ومحابّهم، وهي الحب، حب الله لهم، وحبهم لله عز وجل. فالحب هو الذي يرسخ جذور إيمانهم، والحب هو الذي يثبتهم بالقول الثابت، ويسلك بهم السبيل المحقق لمرضاة الله.

وهذا ما نراه اليوم من حال الذين يدخلون الإسلام في ربوع الغرب. إنك لتعجب من تحولهم عن أقصى التفلت والتحرر من الالتزامات، إلى أتم وأعلى درجات الالتزام بأوامر الله وأحكامه. وإنه ليخيل إلى ذي النظرة العجلى أن اليقين العقلي الذي تحلّوا به هو الذي حقق في حياتهم هذا التحول السريع، ولكن الحقيقة ليست كذلك. إن الذي نقلهم هذه النقلة السريعة من النقيض إلى النقيض إنما هو غياب الحب الدنيوي والشهواني السابق الذي كان مهيمناً على أفئدتهم، عندما أشرق في حناياها الحب الرباني الجديد، فنسخت إشراقة هذا الحب الثاني حبهم الدنيوي السابق.

لا أدلّ على ذلك من الأوراد التي يأخذ أنفسهم بها هؤلاء الوافدون إلى الإسلام في شتى ربوع الغرب. إن لهم أوراداً دائمة من ذكر الله والانضباط بمراقبته، والعكوف على قراءة كلام الله إن بالرجوع إلى أصله العربي أو باللجوء إلى ترجماته المتوافرة.

فعلامَ يدلّ هذا الالتزام الذي يتيه عن معرفة أهميته وعن

الالتزام به كثير من المسلمين الذين ورثوا الإسلام كابراً عن كابر في بلادنا، بل كثير من المسلمين الذين يحمّلون أنفسهم مهمة الدعوة إليه والتعريف به؟

إنه يدلّ على الحب الذي يدعوهم إلى هذا الالتزام، بل يجعلهم ينتعشون بأورادهم ويستأنسون بها، ويزدادون استيحاشاً من ماضي تقلباتهم في حمأة الأهواء والرذائل، إذ لم يكن قد أتيح لهم بعدُ الارتشافُ من شهد محبة الله.

بل إني لأعلم في هؤلاء الغربيين الذين شرفهم الله بالإسلام، من مرّوا بابتلاءات امتحن الله صدق إيمانهم بها، ذلك الصدق الذي لا يتجلى إلا من خلال الحب الرباني الذي يتغلب، بل ربما يقضي على محبة الأغيار بكل أصنافها، زجهم الابتلاء الرباني بالغربة بعد الأنس بالأهل والأصدقاء والخلان، حرمهم من موارد مالية تعودوا عليها واعتمدوا عليها في جَنْي رغائبهم ورغد عيشهم، فصلهم عن وظائفهم وحطهم عن مراكزهم المادية والمعنوية التي كانوا يتبوؤونها. فلم يتبرموا بشيء من ذلك، ولم يُدخِل أي غاشية على مشاعر أنسهم بالله وحبهم له واعتزازهم بما يجزمون به من حبه لهم.

قل لي: أفيقوى الفكر العاري عن وقود الحب وعامل الشوق، أن يثبت صاحبه على كل هذه الابتلاءات، مع الرضا بها، والشكر للإله الذي ابتلاه بها؟

عندما يغيب حب الله عن الفؤاد، لابد أن تحلّ فيه محبة الأغيار: الشهوات، المال، الجاه، المكانة، حب الأثرة والذات.

وعندئذ لابد أن يصبح الحكم لهذا الحب الثاني، بيده القرار وإليه المرجع. أما الأفكار الموجودة في أطراف الذهن، فلها أن تقول ما تشاء، ولها أن تعبر عما تريد. ولكنها لا تملك بشيء من كل ما تقوله وتنشئه أي غلبة على وقود الحب المهيمن على القلب والحافز على الحركة والسلوك.

وهذا ينطبق على حال كثير من المسلمين اليوم في بلادنا؛ حملوا أوقاراً من الفكر الإسلامي إلى درجة الإرهاق، فلم تزدهم إلا هبوطاً إلى الدون، ولم تدفعهم إلا إلى البحث عن مزيد من المكاسب والرغائب الدنيوية المكشوفة آناً والمقنعة بقناع العمل الإسلامي آناً آخر.

أوقار من الأفكار.. هي كل رأس مالهم على طريق التحقق بحقائق الإسلام. صدّتهم عن الركون في البكور والآصال إلى الانتعاش بذكر الله.. أنستهم لذة مناجاة الله في الأسحار، ونشوة التذلل بالسجود له على الأرض المتربة في جنح الظلمات.

إنني أجزم بأنا نملك من الأدلة العلمية على صحة عقائد الإسلام، ونملك من البراهين الفكرية على أن المجتمع الإسلامي بمقوماته السياسية والأخلاقية والاعتقادية هو المجتمع الأمثل بين المجتمعات الإنسانية المتنوعة، كما نملك من الأدلة المبثوثة في أحكام المعاملات الشرعية ما يؤكد أن الاقتصاد الإسلامي هو مفتاح النجاة من شقاء الإنسان بالحبال الاقتصادية الخانقة.. أقول: إنني أجزم بأننا نملك اليوم من الأدلة العلمية على هذه الحقائق كلها، ما لم يكن لسلف هذه الأمة علم به والتفات إليه، ومع ذلك

فقد أتيح لهم أن يقيموا هذا المجتمع الإسلامي المنشود، وأتيح لهم أن يتلاقوا في تعاون عجيب على نسيج من العلاقات الاقتصادية التي بهرت البصائر والأبصار، وأتيح لهم أن يختطوا لأنفسهم خطة سياسية إسلامية راشدة اخترقت أسوار السياسات المحيطة بها.

حفظنا قواعد هذه المكاسب كلها كلاماً وعلماً ومباهاةً، وبقينا نراوح في أماكننا ونُجْلَدُ بسياط ذلِّنا، لأنا لم نملك مع هذا الكلام وقود الحب.

وأخذ أولئك الرجال من كل شيء بنصيب، ثم تحولوا من دور الكلام والفهم إلى دور العمل والتنفيذ، يحدوهم إلى ذلك الحبُّ، وينهضهم إليه الشوق. ولكن أي حب؟ إنه ذلك الحب السامي الذي أطفأ من نفوسهم جمرة الشهوات والرعونات والأهواء. إنه ذلك الحب الذي فجر على أيديهم الطاقات وحقق في سلوكهم المعجزات، إنه ذلك الحب الرباني الذي يقرب البعيد ويلين الحديد، وتضؤل أمامه العقبات، وتُحطَّم تحت وهجه العوائق والصعوبات. إنه ذلك الحب الذي يجعل صاحبه يقدِّم لمحبوبه كل نفس ونفيس، ويعتصر في سبيل مرضاته كل ما يملك من مال وجهد، وهو يرى أنه لم يؤدِّ بعدُ شيئاً من حق المحبة، ولم يوف المحسن الأوحد شيئاً من حقوق إحسانه.

أفترى أن الله يضنُّ على هؤلاء المحبين له بقلوبهم والمؤمنين به بعقولهم، بأسباب النصر والتوفيق، وخوارق الفتح والتأييد؟

❀ ❀ ❀

وصفوة القول أن بين العقل والحب في حياة الإنسان جدلية دائمة، وتفاعلاً مستمراً، وربما كان التفاعل الساري بينهما مؤدياً إلى نتيجة إيجابية، وربما كان مؤدياً إلى نتيجة سلبية.

وفي كلا الحالين لابدّ أن يكون دور العقل إيجابياً، إن سلمت المقدمات وسارت المحاكمة العقلية طبق المنهج الصحيح؛ إذ العقل في هذه الحالة لا يمكن إلا أن يهدي إلى الحق، فيما كان للعقل سبيل إلى إدراكه.

غير أن الحب ربما كان دواء، وربما تحول فأصبح داء. فإذا هيمنت الفطرة الإيمانية على القلب، وغُذِّيَ القلب بعوامل الحب لله، واستقام حال الإنسان على ذلك، تلاقى الحب مع العقل على طريق واحد واتجها معاً إلى غاية واحدة، فكان الحب متمماً لقرار العقل ودعماً له، وغدا العقل كابحاً للحب حاجزاً له عن الشطح والغلو والانحراف.

أما إن هيمنت رغبات الأهواء والرعونات النفسية على مكمن العاطفة من القلب، فإن الحب يغدو عندئذ ترجماناً لتلك الرغبات ووقوداً في خدمتها، وبذلك يتحول الحب إلى داء وبيل مهلك. وهيهات لضياء العقل أن تكون له سلطة مقيدة أو قوة كابحة لحكم الحب وهياجه.

❁ ❁ ❁

آفة الاعتماد على العقل وحده

وأذكرك بأنا نتحدث عن طريق السلوك إلى الله، ولسنا بصدد الحديث عن المصالح والمشكلات الدنيوية أياً كانت.

لا ريب أن الاعتماد على العقل ضرورة وليس آفة، إذ هو نبراس الهداية وهو الميزان الذي يميز الحق عن الباطل.

ولكن الاعتماد على العقل وحده هو الآفة. وسبب ذلك أن بنيان الإسلام يتكون من أساس خفي مستقره العقل، ومُنشَأةٍ باسقة تتألف من شرائع وعبادات ومبادئ أخلاقية. وهي في جملتها أحكام سلوكية مبنية على ذلك الأساس الاعتقادي الخفي.

وما أدق الصورة التي وضعها البيان الإلهي أمامنا لهذا الهيكل الإسلامي كله، بدءاً من أساسه العقل الخفي، وصعوداً إلى جذعه فأغصانه من العبادات والشرائع المتنوعة وأخلاقه الإنسانية، ثم انتهاء بثماره الاجتماعية وآثاره الحضارية، وجزائه الأخروي الأوفى. انظر إلى هذه الصورة كاملة في قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤-٢٥].

إن الاعتماد على العقل وحده في إدراك الأساس الاعتقادي الخفي لبنيان هذا الدين، لا إشكال فيه، ولا حاجة فيه إلى مزيد.

ولكن الانطلاق منه إلى التطبيقات السلوكية المتمثلة في عباداته وشرائعه وأحكام الحلال والحرام فيه، والمبادئ الأخلاقية المنبثقة منه، يتوقف على قوة تصدّ وتردّ الأهواء والرعونات النفسية عن السبيل إلى تطبيق سائر تلك الشرائع والأحكام.

فما هي هذه القوة التي تملك أن تصد تلك الأهواء والرعونات، وأن تعبد الطريق أمام الالتزام السلوكي بكل تلك الأحكام؟

ليس ثمة إلا قوة واحدة، هي المرشحة للقيام بهذه المهمة، وهي التي تملك بلوغ النجاح في ذلك، إنها العاطفة بأنواعها الدافعة والرادعة والممجدة، عندما تجنّد للنهوض بهذه المهمة، وتُهيأ لها.

وذلك بأن توجه عاطفة الحب إلى الله ورسوله، وأن توجه عاطفة الخوف إلى الله ورسوله أيضاً. وسبيل هذا التوجيه الإكثار من ذكر الله وربط النعم دائماً بالمنعم جل جلاله، واتخاذ ورد دائم من تلاوة كتاب الله بتدبر.

إن الاستقامة على هذا السبيل من شأنه أن يوقظ محبة الله ورسوله في قلبك، وعندئذ يتلقى العقل دعمه الملازم من مشاعر كل من الحب والخوف، التي توجهت إلى الله بعد أن كانت موجهة إلى الرعونات والشهوات والأهواء.

وإذا امتزج يقين العقل بمحبة القلب، غدا الإيمان بالله ورسوله وشرائعه، قطاراً متحركاً مندفعاً سائراً على صراط الله، بعيداً عن سبل الشهوات والأهواء، ملبياً نداء الله القائل:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣].

فالآفة إذن لا تتمثل في الاستضاءة بنور العقل، كيف وإن الله يأمرنا في القرآن دائماً بالاستضاءة بنوره؟! ولكن الآفة تتمثل في ألا يكون إلى جانب العقل قرين من وقود العاطفة يؤيد العقل ويدعمه في رحلته المتجهة إلى الله.

وها أنا ذا أضعك أمام صور من النتائج الواقعية المؤسفة لهذه الآفة:

زيد من الناس، بصير بالمبادئ الاعتقادية للإسلام والإيمان، وعالم بالكثير من أحكام الشريعة الإسلامية. ولكن حبه منصرف إلى ما يحلم به من الحصول على مزيد من الثروة المالية، وعلى المزيد من أسباب رغد العيش، وعلو المكانة في المجتمع. تعرفت عليه مؤسسة أجنبيّة ما، من شأنها أن تخطب ودّ نُقاية من المثقفين ذوي الفكر المرموق في المجتمع، لتروج أفكارها وتوجهاتها الاجتماعية والسياسية عن طريقهم، وسرعان ما تبينت رغائبه النفسية وأحلامه المعيشية، الملائمة للمجندين الذين تبحث عنهم.. فاتخذت من رغائبه تلك ثغرة نفذت منها إلى الحصول على ما تبتغيه منه.. انطوى عقده الإيماني العقلي الأعزل مع الله، واستُبْدِلَ به عقد خفي

فعال، مِلاكه سلطان الحب الهابط إلى الأدنى، المحجوب عن المحبوب الحقيقي المحسن الأوحد.. وانطلق الرجل ينفذ العقد الخفي المبرم المتضمن بث الأفكار والتوجهات المطلوبة، أما العقد العقلاني الأعزل مع الله، فقد أصبح مضمونه الفكري والسلوكي مطية ذلولاً وبوقاً غير مباشر لتلك التوجهات والأفكار.

فلان آخر من الناس، معروف في الأوساط بعلومه الشرعية، ومن ثم يتمتع بمكانة دينية باسقة، تنزع به أحلامه ورغائبه الدنيوية إلى مزيد من الرفعة المكانية في الأوساط، ومزيد من الثروة المالية في الجيب. عجم الأفكار والتوجهات المطلوبة منه ضريبةً لبلوغ أحلامه ورغائبه الدنيوية، فعلم أن المطلوب منه التلاعب ببعض الأحكام الشرعية المحددة، وسرعان ما استجاب، فأفتى بحلّ نسبة لا تزيد على ٤٪ من الفائدة، وأفتى بحرمة تعدد الزوجات، وقرر أن عيسى بن مريم عليه السلام مات في الأرض كسائر الناس، وأن السماء ما كانت يوماً ما مقبرة.. إلى غير ذلك مما قد طلب منه أن يفتي به.

نال فلان هذا الأجر الذي اشترط الحصول عليه، مقابل الفتاوى التي اصطنعها، وهو الأجر الذي ساقه إلى البحث عنه والحصول عليه، حبه الهابط الذي ملك عليه لبه، وترك العقل سجيناً في فجاج الرأي والقول. ليس في مكنون العاطفة ما يؤيده أو يدعمه.

ولما ذوى منه الجسم، ونالت منه الشيخوخة، وتحكم به المرض، ورقدت المحبة الهوجاء في كيانه رقدة الموت،

واستيقظت الفطرة الإيمانية التي كان مغلوباً عليها تحت سلطان الحب الدنيوي القاهر، أشهد مَنْ حوله من العائدين له، وكانوا كثرة من الناس، أنه تائب إلى الله تعالى من فتاوى استجاب في ترويجها والقول بها، لرغبات المتنفذين، طمعاً في الحصول على ما كان يتأمله ويتشهاه، وأخذ يعدد لهم الفتاوى الباطلة التي كان قد أفتى بها ودافع عنها، ويستشهدهم أنه تائب عنها مقرّ ببطلانها[١].

إذن، فإنها آفة خطيرة أن ينعزل العقل المحتضن لحقائق الإيمان عن العاطفة، أي الحب الذي يهفو إلى الحقائق ذاتها، والمشكلة الكبرى أن الحب لا يتأتى له أن يتخذ موقف الحياد، وما اتخذ يوماً في قلب أي من الناس هذا الموقف الحيادي قط. لقد قلت لك؛ إن القلب في احتضانه لمشاعر الحب كالمرآة، فهل وقفت على حالة ما للمرآة تكون فيها حيادية، لا يتراءى على صفحتها شيء؟ إنك لو ذهبت تستر المرآة بغطاء، لكان الغطاء هو الشيء الذي تحتضنه وتتبناه.

❁ ❁ ❁

---

(١) ليس (فلان) هذا شخصية وهمية تنسج حولها هذه الأحدوثة، بل هو واحد من العلماء الذين كان يشار إليهم بالبنان، وكثير ممن استُشهِدوا على توبته آنذاك، أحياء اليوم.

آفة الاعتماد على الحب وحده

تبين فيما مضى أن الوصول إلى مرضاة الله لا يتحقق إلا بجناحي الإيمان العقلي والمحبة القلبية. وقد عرفنا مما سبق بيانه أن الاعتماد على الإيمان العقلي وحده، لا يحرك في كيان الإنسان ساكناً، ولا يقوم منه اعوجاجاً، لأن العقل مجرد مصباح، والمصباح يضيء، ولكنه لا يدفع ولا يحرك.

والمهم أن نعلم الآن أن الاعتماد على وهج الحب وحده، يحرك، ولكنه لا يهدي إلى الحق، ويسيّر ولكن على غير هدى. وكما يتلقف الشيطانُ العالمَ الذي لم يهذب الحب الرباني نفسه، فيضله بعلمه، ويجعل من علمه وثقافته الدينية وبالاً عليه (وقد وضعتك أمام نماذج حقيقية لذلك) فإن الشيطان يتلقف أيضاً ذاك الذي لم يتلق من حقائق العقائد الإسلامية والأحكام الشرعية، ما يضبط حرارة حبه وحركة وجدانه بضوابط الشرع وتعاليمه، ويضع حبه الرباني (في الظاهر) على نهج الصراط السليم الذي لا يوجد سبيل غيره إلى مرضاة الله عز وجل.

ومن أبرز ما يدل على هذه الحقيقة في كتاب الله تعالى قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١].

أي إن كنتم تبحثون عن الحب الذي يوصلكم إلى مرضاة الله، فاتخذوا من المبادئ الاعتقادية والأحكام والتشريعات السلوكية التي جاءكم بها محمد ﷺ من عندي، ضابطاً لحبكم وترجماناً لأشواقكم.

وأنت تعلم أن المبادئ والتعاليم التي بعث بها محمد ﷺ ليست إلا ثماراً للعلم الذي يتلقاه العقل. وهكذا فقد جعل البيان الإلهي من العلم بعقائد الدين وشرائعه ضابطاً لسير الحب، ودالاً على توجهاته السليمة.

وقد استسلم أناس لمشاعر حب فطري لله تعالى اهتاج بين جوانحهم، من دون أن يلتفتوا بعقولهم إلى ما بعث به الرسل والأنبياء، من البيانات العلمية التي تكشف للعقول العقائد الدينية الصحيحة، والتي تبصرها بالشرائع السلوكية السليمة، فانطلق بهم ذلك الحب على غير هدى، واختلط حبهم الرباني الذي ربما كانوا صادقين فيه، بالرغائب الغريزية والشهوات الحيوانية التي لا مجال لإنكار وجودها داخل كيان كل إنسان. فضلّت عليهم، من جراء ذلك، السبل، وامتزج حبهم الفطري لله بحبهم الغريزي للرغائب والأهواء.. فتخبطوا من ذلك في متاهات أسلمتهم إلى ضلالات في الاعتقاد وانحرافات في السلوك والشرائع. ثم إن الشيطان استثمر

من ذلك فرصة نادرة، قلما يتأتى له مثلها، فلبّس عليهم الحق بالباطل، وخيل إليهم أنهم إنما يترقون من ضلالاتهم تلك في سلّم الصعود إلى مرضاة الله.

وما أيسر أن يقحم الشيطان الإنسان في ذلك كله، عندما يغيب سلطان العقل، وتنفصل عنه الأداة الوحيدة التي بيده، وهي العلم ونبراسه.

ما أكثر الناس الذين حدثنا التاريخ عنهم، والذين ذهبوا ضحية حب أعزل لله ورسوله، ولا يسعنا إلا أن نصدقهم في سلامة حبهم وصفاء قصدهم. ولكنهم لما افتقروا إلى العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وأقاموا وهج حبهم لله على أساس من الجهل، سرعان ما تحول حبهم إلى جند يتحكم به كل من الشيطان وكوامن الشهوات والأهواء الجانحة، دون علم منهم في بادئ الأمر بذلك. فلما ذاقوا من ضلالهم ذاك ما لذّ للنفس، وما استعذبته الرعونات والأهواء، لم يعد يفيدهم العلم بعد الجهل، ولم تعد لديهم قابلية الالتفات إلى تذكرة الناصحين، ولا إلى ما يحذرهم منه بيان ربّ العالمين.

إنهم أولئك المرشدون الزائفون الذين تعاملوا مع حبهم لله ورسوله في بادئ الأمر (إذ كانوا صادقين ربما مع مشاعرهم) على أساس من الجهل بضوابط العقائد الإيمانية والمبادئ والأحكام الشرعية، فلما استرسلوا في نهجهم ذاك، وذاقوا نشوة قيادتهم

للمريدين، وقطفوا ثمار استسلامهم لأوامر مرشديهم وتوجيهاتهم، واستمتعوا بلذة خضوعهم لهم، والتسابق إلى تقبيل أيديهم، أصبحت يقظتهم إلى الضلال الذي وقعوا، وأوقعوا فيه، وتَنبُّهُهم إلى ضرورة اللجوء إلى العلم الذي حيل بينه وبينهم، غير مفيد لهم. بل أصبحوا يرون في الرجوع إلى ضوابط العلم عدواً لهم؛ فأنت تراهم أينما وجدوا، يمارسون عداوة شرسة لموازين العقل وضوابط العلم، لما يرون فيه من التهديد لمكاسبهم، ومن حرمانهم من معين نشوتهم، ومصدر رزقهم ومن زوال الهالة التي تحيط بهم، والمكانة التي يتبوؤونها بين الناس الجاهلين من أمثالهم.

ولقد اتخذ الشيطان لنفسه جنداً كثيفاً من هؤلاء الناس على مر التاريخ، دون انقطاع. بل لقد طمع الشيطان في بعض الأحيان بأن يجرب حظه حتى في إضلال الذين ركنوا من حياتهم الدينية والإرشادية إلى ضوابط العلم وأحكامه، ولكن جهوده في هذه الحال لم تأت بأي طائل.

من هؤلاء الذين جرب الشيطان معهم حظه العاثر، سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه. فقد حدث عن نفسه أنه كان مرّة في الصحراء، وقد أخذ منه الظمأ، ففوجئ بسحابة أظلته وأحاطت به، وما هو إلا أن سمع صوتاً انبعث من داخل تلك السحابة يقول له: لقد بلغت يا عبد القادر الشأو الذي أحب، وقد وضعت عنك التكليف.

يقول قدس الله روحه: نظرت فوجدت هذا الكلام يناقض بيان الله القائل لرسوله ﷺ:

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ١٥/٩٩](١).

وإنما اليقين فيما أجمع عليه العلماء الموت. فناديت بأعلى صوتي: اخسأ أيها اللعين، فقد عرفتك. فما هو إلا أن تبدد ذلك السحاب وانقشع عني ظلامه.

وإني لأعلم أن الشيطان يعبث في عصرنا اليوم بأناس من هذا القبيل، اتخذوا من الحب والوجدان وحده، أساساً لعمل الإرشاد في حياتهم، وأداةً للسير إلى الله مع مريديهم. وإذا غابت ضوابط الشرع أمام السالكين، اتسعت آفاق الضلال أمامهم، وكثرت أسباب الخداع أمام مرتزقة الإرشاد لمريديهم.

ولقد علمت أن في هؤلاء الناس اليوم، من يجلسون مجالس الذكر ويجمعون المريدين من حولهم، ويأمرهم مرشدهم أن يتركوا

---

(١) وردت هذه القصة بهذا الشكل في بعض المراجع. وقد ساقها ابن العماد مروية عن موسى ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال: حدثني والدي فقال: اشتد بي العطش، فأظلتني سحابة ونزل عليّ منها شيء يشبه الندى فرويت. ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق وبدت لي صورة ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات، أو قال: أحللت لك ما حرمته على غيرك، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. اخسأ يا لعين. فإذا ذلك النور ظلام، وإذا تلك الصورة دخان. ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأحكام ربك، وقوتك في أطول منازلاتك. (شذرات الذهب: ٤/١٩٨).

مكاناً متميزاً في صدر من صدور مجلسهم ذاك، موهماً بأنه مُعدٌّ لرسول الله ﷺ، وبأنه سيأتي ويجلس معهم فيه، في لحظة معينة يعلمها هو دون غيره. ولإتمام الصورة، ولبثِّ اليقين بذلك في نفوس المريدين الجهال، يفاجئهم شيخهم المرشد بالوقوف بطريقة (درامية) لافتة، مشيراً لهم بأن رسول الله ﷺ قد دخل. فما هو إلا أن يقوم الناس الذين من حوله جميعاً، وقد انطلت عليهم الخدعة، وازدادوا بذلك ثقة بالشيخ واستسلاماً لأوامره وخضوعاً لتوجيهاته.

وما تسرب إلى منهج تزكية النفس وتطهيرها، مما سماه الله في كتابه (باطن الإثم) ما قد تسرب إليه من الشوائب التي دعت بعض الناس إلى الارتياب في هذا المنهج من حيث هو، بل إلى محاربته والتحذير منه، إلا بسبب هذا الذي أصبح واضحاً لك، وهو اتخاذ الحب، أو دعوى الحب لله ورسوله، وحده، قائداً في السلوك إلى الله، مع الاستهانة بالضوابط والكوابح العقلية والعلمية التي يفيض كتاب الله تعالى بلفتِ النظر إلى أهميتها وضرورة الأخذ بها.

❀ ❀ ❀

وبعد، فإنما قلت هذا، مؤثراً الأخذ بحسن الظن، بانياً الأحكام على الظاهر الذي يبدو لنا من أقوال الناس وسلوكهم.

أما إن أردنا أن نحكم بما تمليه علينا قناعاتنا الداخلية، فلا بد أن نقول حينئذ: إن الحب الذي يتعامل معه هذا الفريق من الناس،

إنما هو حب مصالحهم ومكاسبهم المادية والمعنوية، ولكنها تمرّر في أقنية مظهرها ومجلاها محبة الله ورسوله. إذ إن ذلك هو الشرط الذي لابدّ منه للوصول إلى ما يبتغون.

فالله أعلم بخفايا الأمور ونسأله أن يصلح لنا سرنا وعلانيتنا.

دور الحب في أعمال الدعوة والتعريف بالإسلام

أعود فأذكّرك بأنا نعني بالحبّ هنا حب الله ورسوله ﷺ، ولسنا نعني في هذا المقام غير ذلك من محبة أيّ من الأغيار.

إذا تبين هذا، فربما وجد في القراء من يقول: من المسلَّم به أن السلوك الذاتي للإنسان إلى الله لا يتم إلا باليقين بحقائق الإيمان وأحكامِ الشريعة إذ تستقر في العقل، ثم بالعاطفة الإيمانية المتمثلة في حب الله ورسوله إذ تهيمن على القلب، ولكن ما وجه الحاجة إلى هذا الحب، بالنسبة إلى من وقف يجادل الكافرين ويعرّفهم على حقائق الإسلام والإيمان ودلائل وجود الله، أو بالنسبة إلى من يقوم بمهام الدعوة إلى الإسلام عموماً، في أوساط الضالين، من الفسقة أو الملاحدة أو غيرهم من التائهين والمقصرين؟

إن التعريف بالإسلام إذ يقوم به أحدنا أمام كثير من هؤلاء الذين تكاثرت في أذهانهم الشبهات تجاه حقائق الإسلام والإيمان بالله، لا يحتاج إلا إلى معرفة بالشبهات التي تطوف بأذهانهم، وبصيرة علمية في الرد عليها وإثبات بطلانها.

والخلاصة أن العمل هنا محاجّة علمية مجردة، وإنما يتوقف نجاح الداعي فيها، على مدى قدرته العلمية التي يتمتع بها في تفنيد الباطل وترسيخ الحق في ذهن من يناقشه، لا على ما يشعر به الداعي المناقش من حبه أو عدم حبه لله.

أجل، إن في الناس المنصرفين إلى مناقشة المبطلين وأصحاب المذاهب الفكرية الجانحة، من يقولون هذا الكلام، أي يفرقون بين ما يحتاج إليه المسلم لتربيته الذاتية، وما يحتاج إليه لأفكاره الجدالية إذ يلاحق بها المبطلين.

والجواب أن الحاجة إلى محبة الله ورسوله، لا تنفك عن الإنسان المسلم في أي من أحواله وتقلباته، سواء كانت مع نفسه أم مع الآخرين. ولعل حاجته إلى التمتع بهذا الحب، بصدد قيامه بأعمال الدعوة والتعريف بالإسلام، وتفنيد الأوهام التي يتذرع ويحتج بها المبطلون، أشد وأكثر ضرورة.

صحيح أن العلم بحقائق الإسلام: عقائده، عباداته، شرائعه هو مادة الدعوة إلى الإسلام وأداة التعريف به من حيث الظاهر. وهذا الظاهر لابدّ منه قطعاً. ولكنَّ تمتع المسلم بالجذوة الكافية من محبة الله ورسوله، هو الأداة التي لابدّ منها من حيث باطن الأمر، بل هو سرّ نجاح الداعي في دعوته.

تتجلى حاجة كل من يلاحق الكافرين أو الملحدين، بالتعريف بالإسلام، والرد على الشبهات التي يتمسك بها محترفو الغزو الفكري، إلى أن يكون محصّناً بحصن الحب، من جانبين اثنين:

الجانب الأول: ما ينبغي أن نعلمه جميعاً من أن الكلمات البليغة والرصينة التي ينتقيها الداعي إلى الإسلام، وما تحمله من معان علمية دقيقة، كان قد وعاها وتبصّر بها، ليست هي التي تدخل قبس الهداية في نفس التائه أو الفاسق أو الملحد[1]. وإنما الذي يدخل ذلك في نفسه ما تحمله تلك الكلمات من لوعة الحب وحرارة الوجدان.

ولقد قلت لك إن في المستشرقين من يحملون في عقولهم أوقاراً من الدلائل العلمية على وجود الله، وعلى أن الإسلام حق في عقائده وتشريعاته، ومع ذلك فإن تلك الأوقار من الدلائل والبراهين العلمية، لم توجههم إلى الحق شروى نقير، ومن ثم لم تجذب أحداً من الضالين الذين من حولهم إلى سبيل الهداية والحق.

والأساس العلمي لهذا الذي أقوله لك أن الكلمات التي تقرع الآذان، إن كانت لا تحمل أكثر من معانيها الفكرية أو العلمية، ينتهي ويتبدد جرسها داخل الصماخ، وتستقر معانيها في تجاويف الدماغ. أما النفس التي تقود الكيان، فلا يصل إليها من تلك الكلمات ومعانيها شيء. ذلك لأن المشاعر هي التي تلمس المشاعر، ومن ثم تخاطبها، والشجى هو الذي يبعث الشجى. وهذا هو معنى المثل القائل: ليست النائحة كالثكلى. أي إن النائحة

---

(١) على أن حمل الحقائق العلمية إلى الآخرين لابدّ منها، ولكن لا يعوّل عليها وحدها.

تنفث من حلقها كلاماً تتعامل معه الآذان، أما الثكلى فتنفث من أعماق صدرها لوعة الأسى والحزن على وليدها، وإنما تتعامل معها المشاعر والوجدان.

في الخطباء المصاقع من صاغوا درراً من الكلام، ألقوه في محافل مشهودة على سمع خلفاء ورؤساء مرموقين، فما شعرت نفوسهم من ذلك بشيء، لأن الكلام إنما تتعامل معه الآذان فقط.

وفي الرجال من أسهرهم وأضناهم وهج المحبة الإلهية، فكانت كلماتهم البسيطة المضمخة بالضنى والمشويَّة بلوعة الحب، لا تخطئ الوصول إلى أعماق نفوس السامعين، فينبعث الضنى الراقد من الضنى المقبل، وتتجاوب لوعة النفس مع لوعة النفس.

روى سفيان بن عيينة أنه دخل مع جمع من العلماء على الرشيد استجابة لدعوة وجهت إليهم، قال: ودخل الفضيل بعدنا جميعاً، مقنِّعاً رأسه بردائه. فلما اطمأن به المجلس قال لي: يا سفيان، أيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إليه. فنظر الفضيل إليه قائلاً:

يا حَسَن الوجه، أنت الذي أَمْرُ هذه الأمة والعباد بيدك وفي عنقك؟!.. لقد تقلّدت أمراً عظيماً!..

فاستعبر الرشيد باكياً.. ثم إنه أعطى كل واحد من العلماء الحاضرين عشرة آلاف درهم، فقبلها جميعهم إلا الفضيل. فقال له الرشيد: ما أزهدك يا أبا عليّ!.. قال: أنت أزهد مني. قال: كيف؟

قال: لأني زهدت في الدنيا الفانية، وأنت زهدت في الآخرة الباقية.

إنها لوعة الحب، ورحلة الحزن، هي التي انطوت عليها الكلمات القليلة والبسيطة التي خاطب بها الفضيلُ الرشيد، فبقيت الكلمات حبيسة داخل أذنه، وسرت اللوعة ومشاعر الحزن من الفضيل إلى حيث المشاعر الكامنة في نفسه، وانبعث الشجى من الشجى، فاستعبر وتأثر باكياً لتلك الكلمات!..

أما الجانب الثاني من حاجة الداعي إلى الله والمعرِّف بدين الله إلى التحصن بحصن الحب، فيتجلّى في حماية الله له عن طريق هذا الحب، من كيد الكائدين الذين يواجههم بالأدلة العلمية التي لا مفرّ من الإذعان لها، فيفرون من المواجهة التي لا قبل لهم بها ولا قدرة لهم على دحضها، إلى نصب المكايد له والعمل على جذبه إلى عثرات النفس وزجه في مزالق الأهواء والمشتهيات.

إن محترفي الغزو الفكري، دأبهم أن يبعثوا بشبهاتهم المصطنعة إلى الأذهان من بعيد، دون أن يورطوا أنفسهم في لقاءات جدل مع العلماء من المسلمين.

ولكن دأبهم إن أُلجِئوا إلى المواجهة، ولم يستطيعوا العبث بعقولهم، أن يعملوا على شراء نفوسهم، فإن كان الدعاة الذين يواجهونهم محصنين بوقاية الحب إلى جانب التمتع بالعلم، ذهبت جهودهم كلها سدى، ولم يستطيعوا أن ينالوا من أنفسهم أيّ منال. أما إن كانوا من الصنف الذي يتاجر بالأقوال ويتباهى بالأفكار، مع

انطواء كل منهم على نفس استعمرتها محبة الدنيا بكل ما تفور به من شهوات وأهواء وأموال، فما أيسر أن يتصيد محترفو الغزو الفكري كلاً منهم، واحداً إثر آخر، يقودونه إلى حيث يشاؤون، من زمام النفس، بعد أن عزت وتأبت عليهم مقادة العقل.

وما أكثر الذين سيقوا من أزمّة نفوسهم إلى ما لا يملكون رجوعاً عنه، وبقيت معارفهم الدينية وحججهم الإسلامية حبيسة في زوايا عقولهم، كما تبقى الأسلحة جاثمة في أماكنها لتواجه الصدأ، ولتستعصي على الأيدي التي نسيت استعمالها.

ولقد تعرضت يوماً ما، فيمن تعرض لهذا الاصطياد، ولكن ذخراً من الوجدان الإيماني، والحياء من الله، هو الذي حصنني وأنجاني.

ولقد أنبأنا البيان الإلهي في القرآن بهذه الحقيقة التي نحاول إيضاحها والتنبيه إليها في هذا الفصل الأخير، من خلال عرض بلاغي موجز أخاذ لقصة ذاك الذي اعتز بعلومه الكثيرة الواسعة، ونسي أن يحصن نفسه بحصن الوجدان الإيماني المتمثل في محبة الله إذ تهيمن على النفس فتطرد منها محبة الأغيار، وتقطع آمالها عن العاجلة الفانية لتوجهها إلى الآخرة الباقية. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن اسمه (بلعام بن باعوراء) فلم تفده علومه الكثيرة أمام نفسه المندلقة إلى الدنيا ومفاتنها، المتعلقة بمشتهيات المال والمتاع، فانحط إلى الدون استجابةً لنفسه، وعجز عن أن يرتفع إلى الأعلى استجابة لعقله وعلومه.

أنصت إلى هذا الذي يقوله بيان الله تعالى عنه:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٥-١٧٦].

إن الآيات التي أُوتيها هذا الذي يذكر البيان الإلهي خبره، هي العلم بأدق الحقائق الإيمانية والدينية، ولكنه انسلخ منها: تملص منها وانفصل عنها، فلم تعد منه ولم يعد منها.. ولكن لماذا فعل بنفسه ذلك؟ بل لماذا لم يَقِهِ الله شرّ نفسه؟ يقول البيان الإلهي المعجز جواباً: ولو شئنا لرفعناه بها، لسمونا به بواسطة علومه الدينية تلك إلى أعلى الرتب، ولكنه لم يستثمر تلك النعمة التي ميزه الله بها، في تغذية محبة الله والتغلب بها على محبة شهواته وأهوائه، بل استجاب لتلك الأهواء والشهوات، وبحث عن المزيد من متاع الدنيا ومغانمها. وانظر كيف عبر البيان الإلهي عن هذا الذي انحط فيه ابن باعوراء بقوله تعالى:

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦] مال إلى الأرض التي هي أم الشهوات والأهواء والمتاع الدنيوي الفاني، ثم إن أمره آل إلى مثل حال الذي يأكل ولا يشبع، تندلق عليه الدنيا من كل الجهات وبكل المشتهيات، ولكنه يظل يتطلع إلى المزيد ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ

يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦] ولَهث الكلب الدائم أدق تصوير لطمع النّهِم المتكالب على الدنيا العاشق لمتاعها دون أن يشعر بالشبع منها.

قال مالك بن دينار: بُعثَ بلعامُ بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان، فأعطاه الملك من المال ما أسكره، وأقطعه من الأرض ما أبطره، فنسي ما أرسله موسى إليه من أجله، وترك دينه واتبع ما عليه ملك مدين(١).

إذن فهذا نموذج لمن ذهب ضحية عدم تحصينه نفسه بحصن منيع من محبة الله. إن علومه الكثيرة بالدين لم تحل دون وقوعه في أسر شهواته ورغباته الدنيوية، إذ إن غياب حب الله عن قلبه، لابد أن يوسع مكاناً رحباً لمحبة الأغيار على اختلافها فيه. ولا بد أن تجعله في الوقت ذاته دون أي انتظار أو هوادة.

ولعل مأساة الوقوع في كمين الشهوات والأهواء، لمن لم يحصّن نفسه ضدها بحصن منيع من محبة الله ورسوله، تتجلى في قصة ابن السقا (فقيه من أعيان القرن الخامس الهجري) فقد كان واحداً من ثلاثة قصدوا زيارة العالم الرباني الجليل الشيخ يوسف الهمذاني، وكان الثاني ابن عصرون والثالث الشيخ عبد القادر الجيلاني.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/ ٣٨٣ وما بعدها، طبعة مؤسسة الرسالة.

قال ابن السقا لصاحبيه، وهم في الطريق إلى زيارة الشيخ يوسف الهمذاني: إن قصدي من زيارة الشيخ أن أمتحنه في علوم الشريعة وأن أبين جهله للناس المغترين به، وقال ابن عصرون: أما أنا فسأطلب منه الدعاء لي بالغنى ومزيد من المال. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: أما أنا فقد قيل لي عن صلاحه ومناقبه، سأزوره لأتبارك به وسأسأله الدعاء لي.

ولما دخلوا عليه، نظر إلى ابن السقا قائلاً: أرى الجدال والكفر بين عينيك، لعلك جئت تسألني عن كذا وكذا، وذكر أموراً كان قد أضمر ابن السقا العزم على أن يسأل الشيخ عنها، وأجابه عنها.

ثم نظر إلى ابن عصرون قائلاً: سيأتيك المال إلى هنا، وأشار إلى أعلى صدره، ثم خاطب الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال: قدمك على عنق كل أولياء زمانك.

ثم إن عاقبة كل من ابن السقا وابن عصرون كانت كما قال الشيخ، رزق ابن عصرون من المال ما جعله أغنى الناس في عصره، وقبره في دمشق في المنطقة التي تسمى اليوم بالعصرونية.

وأما ابن السقا، فقد أوفده الخليفة إلى بعض ملوك الفرنجة، ليناقش النصارى هناك في شؤون الدين، وذلك بدعوة من الملك ورغبة منه في ذلك، وكان ابن السقا يحفظ القرآن معتداً بعلومه ومعارفه الدينية في العقيدة والفقه وكان مشهوداً له بذلك. ونزل ضيفاً مكرماً على الملك نفسه، وأوعز إلى ابنة له أن تتزين وأن

تقوم على خدمته وإكرامه، فافتتن بها وطلب الزواج منها، فامتنعوا من تزويجها منه إلا أن يتنصر، فتنصّر، وتمّ إعلان ذلك في الأوساط، ثم إنهم أنهوا استضافته وأهملوا شأنه وأبوا أن يزوجوه منها. يقول ابن العماد في (شذرات الذهب): ثم إنه رؤي في القسطنطينية مريضاً وبيده مروحة خَلَقة يذبّ بها الذباب عن وجهه، فسئل عن القرآن فقال أنه نسيه، ولا يذكر منه إلا آية واحدة وهي ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٢] وقضى نحبه متنصراً مهملاً مرمياً في أسواق القسطنطينية[(١)]!..

فهذه صورة ثانية لضحايا الاعتداد بالعلم والدراية والقدرة على المجادلة والنقاش، عندما يكون القلب وعاء لمحبة الدنيا متمثلة في متاعها ومشتهياتها، بدلاً من أن يكون وعاء لمحبة الله ومحبة رسوله..

(١) شذرات الذهب لابن العماد: ٤/ ١١١، طبعة لبنان.

آثار يحققها الحب
في مسلك الدعوة إلى الله

ذكرت لك وجه الحاجة إلى هيمنة محبة الله على أفئدة الدعاة إلى الله والمعرفين للناس بدين الله عز وجل.. وقد تبين أنهما حاجتان أساسيتان، إحداهما تتمثل في التأثير الذي تحققه لوعة الحب، وتبثه في نصيحة الناصح ودعوته إلى الله، وقد ذكرت لك نماذج لذلك. والحاجة الثانية تتمثل فيما تحققه هيمنة الحب لله ورسوله من الحصن الذي يقي الداعي إلى الله والمعرف للآخرين بدينه وشرائعه، من كيد الكائدين، ويحفظه من الوقوع في كمائن الذين يحاولون الإيقاع به، بحبال الشهوات والأهواء ومتع الحياة الدنيا، وذكرت لك نماذج لذلك أيضاً.

أما الآن، فأضعك أمام طائفة من الثمرات الهامة التي تتجلى وتتحقق في مسالك رجال الدعوة إلى الله، عندما يتمتع كل منهم بلوعة الحب لله عز وجل، ومن ثم لرسوله المصطفى ﷺ.

أول هذه الآثار غياب أي أهمية أو قيمة أو مركز، عن فكر هذا الإنسان في حق نفسه.

أجل.. فإن الحب الرباني إذا أخذ بمجامع النفس صيَّر صاحبه

في حق نفسه لا شيء. ذلك لأنه يرى دائماً، من خلال ما يشعر به من لوعة هذا الحب، أنه مقصر في أداء حقوق حبه هذا، إذ إن حبه لله يقتضيه أن يبذل كل ما يملك من طاقة ومال ومتاع في سبيل حبه، وأن يهجر النوم ويساهر الليل كله أداء لبعض حقوق حبه، ولكنه يعود إلى نفسه وما يعلمه من الضعف الذي ركب فيها فيعلم أنه عاجز عن النهوض بهذه الحقوق، فيورثه هذا العجز شعوراً بتفاهته وشدة تقصيره، ولاشيئيّته.

وهذا هو الفرق بين أن يقوّم الإنسان منزلته عند الله من خلال ما يرى من مدى مطابقة سلوكه لما يعلمه من أحكام الشرع والتكاليف الإلهية في حقه، وأن يقوّم منزلته عند الله من خلال ما يرى من مدى أدائه لحقوق حبه لله عز وجل.

إنه في الحالة الأولى بوسعه أن يطمئن إلى أنه يؤدي الواجبات المكلف بها ويتجنب المحرمات، إذن فينبغي أن تكون منزلته عند الله عالية.. ولكنه في الحالة الثانية، سيجد أن حقوق ما يدعيه من حبه لله كبيرة وكثيرة كما قلت لك، ويعود إلى طاقاته وقدراته المحدودة، فيعلم أنه مقصر جداً في أداء هذه الحقوق، فإما أن يتهم نفسه بالكذب في دعوى محبته لله، وإما أن يهيمن عليه الخجل من الله عز وجل لما يعلم من أعباء التقصير التي يحملها في جنب الله عز وجل.

ويبين الإمام الشاطبي في موافقاته هذا الفرق وأثره في شعور المسلم فيقول:

«فالضرب الأول (أي الذي يعتمد في معرفة مدى قربه من الله على مدى التزامه بتطبيق الأحكام المطلوبة) حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد، والثاني حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف أو الرجاء أو المحبة. فالخوف سوط سائق، والرجاء حادٍ قائد، والمحبة تيار حامل. فالخائف يعمل مع وجود المشقة، غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون وإن كان شاقاً. والراجي يعمل مع وجود المشقة أيضاً غير أن الرجاء في تمام الراحة يحمل على الصبر على تمام التعب. **والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب، فيسهل عليه الصعب، ويقرب عليه البعيد، وتفنى القوى ولا يرى أنه وفّى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة»**[1].

إذن فمحبة العبد لله عز وجل، تجعله صغيراً في حق نفسه، وتريه ضآلته بل سوءه أمام ما يلاحقه من حقوق حبه لله تعالى.

والمحب ينظر في هذه الحالة إلى الآخرين، ممن ينهجون السبيل الموصل إلى مرضاة الله، فيرى أنهم جميعاً أفضل منه وأقلّ منه تقصيراً في جنب الله، وربما كان في هؤلاء الذين يعتقد في حقهم هذه المزية، من هم مريدون أو تلامذة له.

تأمل في هذه الحالة، حالة الحب التي كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي يتمتع بها، وانظر كيف كانت تحمله على الشعور بالحزن

---

(١) الموافقات: ٢/ ١٤١.

الشديد لتقصيره، وعلى اليقين بأن كل الذين يغشون مجالسه من أصحابه ومريديه خير منه. تأمل في كلماته هذه:

«أي سادة، أنا لست بشيخ، لست بمقدَّم على هذا الجمع، لست بواعظ، لست بمعلم، حُشِرتُ مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فأكون كآحاد المسلمين»[١].

ويقول قدس الله روحه:

«كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير مني، أنا أحيمد اللاش، أنا لاش اللاش»[٢].

أخي القارئ: حاذر أن تعبّر عن هذا المعنى الذي أوضحه لك من خلال هيمنة محبة الله على القلب، بالكلمة المتداولة المعروفة (التواضع)، فإن هذه الكلمة كثيراً ما تكون تعبيراً عن فنّ من التضاؤل المتكلف يمارسه بعضهم أمام الناس، تسبباً لعلو مكانته في أبصارهم، وحملاً لهم على أن يعرفوه متواضعاً متجاهلاً مكانته العالية عند الله وبين الناس.

أمّا ما يفعله وهج الحب الحقيقي في القلب لله تعالى، فهو ما لا يمكن أن يلتبس بفنّ التواضع المصطنع ابتغاء التحقق بمكانة أعلى في صدور الناس. وإن حال سيدي الشيخ أحمد الرفاعي

---

(١) البرهان المؤيد لسيدي الشيخ أحمد الرفاعي، ص ٣١.
(٢) المرجع ذاته، ص ٣٢.

نموذج لهذا الأثر التربوي الذي يفعله الحب الرباني إذ يأخذ بمجامع النفس.

وإن بوسعك، وقد تبين لك حال المرشدين الصادقين مع مريديهم وتلامذتهم، من خلال هذا المرشد الرباني الكبير، سيدي الشيخ أحمد الرفاعي، أقول: بوسعك أن تعلم مدى بعد كثير من الناس الذين يمارسون أعمال التوجيه والإرشاد اليوم، عن المنهج التربوي والإسلامي السليم. إنهم يسلكون مع مريديهم نقيض ما رأيت من مسلك وحال سيدي الشيخ أحمد الرفاعي مع أصحابه ومريديه، بل إنه مسلك مناقض لحال سائر العلماء الربانيين وأولياء الله المقربين مع تلاميذهم ومريديهم. وإنهم لكثرة من الرجال والنساء في هذا العصر.

وإنه ليخيل إليك أن ما يمارسه أحدهم من أعمال التوجيه والإرشاد، إن هو إلّا سعي لغرس اليقين بالمكانة الباسقة التي يتمتع بها، عند الله، في أفئدة المريدين. وإنك لتراه كيف يتسبب بغرس هذا اليقين في أفئدة المريدين بكل الوسائل، لعلك تظن أن من أخطرها ما يفعله أكثرهم من حملهم للمريدين على تقبيل الأيدي، والقيام للشيخ عند القدوم، وما يتبع ذلك من بعض المظاهر المشابهة.

غير أن ثمة ما هو أخطر من هذه المظاهر بكثير.

إن فيهم من يوهم مريديه بأن الله قد أطلعه على سرائرهم، وعلى أحوالهم التي يتقلبون بها في بيوتهم أو في الأسواق والمحالّ.. ويغلب أن يكون هذا في صفوف جماعات النساء.

تدخل إحداهن في الموعد المحدد للقاء مريداتها أو تلميذاتها، كي يتلقين منها الموعظة أو الدرس الذي هنَّ منه على ميعاد. وتنظر الفتيات في وجه الشيخة المرشدة، وإذا بالسخط يتبدّى على قسائم وجهها، وتمضي الشيخة تجترّ سخطها لبضع دقائق في صمت، ثم إنها تفاجئ الفتيات بما لم يكن متوقعاً.. تنظر إليهن قائلة: إن هنالك معصية أو معاصي، تلوح لها ظللها قاتمة تهيمن على المكان. وإن صدرها لمنقبض لذلك، ومن ثم فهي لا تستطيع البقاء معهن في هذا الجو، وما هو إلا أن تقوم وتدير ظهرها إليهن ذاهبة!..

أما الفتيات فلا تسل عن الذعر الذي يجتاح مشاعرهن.. لاسيما أن المرشدة قد سبق أن غرست في أفئدتهن الثقة التامة بها، وبأنها إنما تتلقى مشاعرها إلهاماً من عند الله. فتستغرق كل واحدة منهن في التفكير بالمعصية التي اجترحتها، وتستعين بالذاكرة والخيال لمعرفة هذا الذي تجهله من أمر نفسها في حين أن المرشدة قد كشفته وعلمته: لعلها متابعة المسلسل الذي شهدته مع أهلها بالأمس، أم لعلها ذلك الحديث العابر الذي ألجئت إليه مع ذلك الشاب في محل تجاري بالسوق، أم لعلها تصفح تلك المجلة الماجنة التي استهوتها لبضع دقائق؟!..

وتتحول التخيلات التي تفرضها المسكينة على نفسها، في كثير من الأحيان إلى قلق نفسي، ثم إلى اضطراب فمرض نفسي خطير!..

فماذا نقول عن هذا النهج الذي يمارسه بعضهم اليوم مع تلامذتهم أو مريديهم؟..

إنه، **أولاً**، انحراف عن جادة العبودية الضارعة لله، وهو انحراف ينبئ عن فراغ القلب من محبة الله، وانشغاله بمحبة الأغيار، ومنها الاعتداد بالذات وإيهام المريدين أو المريدات أن الشيخ يتبوأ منزلة القرب من الله، ويتمتع بالكشف الذي أكرمه أو أكرمها الله به.. وما أكثر ما تراه من اتساع الفرق وعظم البون بين ما قد وجدت من حال سيدي العالم الرباني الجليل الشيخ أحمد الرفاعي، وبين ما تراه اليوم من تسلق بعض المربين والمربيات إلى مركز الولاية والقرب من الله، لاسيما أمام المريدين والمريدات.

وإنه، **ثانياً**، يعقب هذه النتيجة اللاتربوية الخطيرة في نفوس التلميذات والمريدات. وإنها لنتيجة مناقضة لما قد تتطلع إليه رغبة المرشد أو المرشدة من حمل المريدين والمريدات على المبالغة في مراقبة النفس ومحاسبتها، إن الوسيلة غير شرعية، والنتيجة التي تأتي على أعقابها نتيجة نفسية خطيرة لا علاقة لها بالهدف المرسوم قط.

ولكن دعك من هذا الأثر السيئ ونتائجه، وانظر إلى المعنى الذي يوحي به هذا التصرف. إنه يوحي إلى المريد بأن المرشد بصير بسريرته خبير بالخفي من أوضاعه، إذ إنه يتمتع بصفاء روحي يورثه الكشف ويرفع عنه الحجب ويعري أمامه الحقائق.

فمتى كان المرشدون الربانيون، بدءاً من الرسل والأنبياء، يوحون إلى أتباعهم هذه الدعوى، ويزجونهم في هذا القلق المهلك؟

إن المرشد كلما ازداد معرفةً بالله وتقرباً منه، ازداد اتهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره، وخوفاً من عواقب هذا التقصير. ومن ثم فإنه يوقن بأن الفتح الذي يكرمه الله به، إذ يجلس إلى مريديه، إنما هو ببركتهم، وبأن الضيق أو الانغلاق الذي ينتابه، إنما مرده إلى سوء حاله. وهو لا يرى في عمله الإرشادي إلا وظيفة أقامه الله عليها.

ومصدر الخطأ الذي يقع فيه بعضهم ما يظنونه من أن مهمة الإرشاد إذ ينهض بها أحدهم، دليل على أنه يتبوأ بذلك مكانة متميزة عن الآخرين عند الله.

وإنه لظَنٌّ باطل، بل إنه لخطأ قتّال!..

النهوض بمهام الدعوة ليس أكثر من وظيفة يسخر الله للقيام بها من يشاء. وربما كانت الحكمة من اختيار من يشاء لها ابتلاءً، وربما كانت تربيةً وتهذيباً للمرشد الداعي، أكثر من أن تكون نصيحة للناس الذين يرشدهم!.. وكم من مرشد ضلَّ من خلال فتنة الإرشاد، واهتدى مريدوه بمعرفة الحق الذي تفتحت عقولهم لإدراكه وتهيأت قلوبهم لمحبته، ولا أشك أن في المرشدين من سيدخلهم الله في شفاعة بعض مريديهم.

وما وقفت على ترجمة أي من العلماء والمرشدين الربانيين الذين شهد لهم التاريخ بالاستقامة والإخلاص والصلاح، إلا ورأيت الجامع المشترك بينهم إنكار الذات، والغمَّ الذي يظلّ ينتابهم بسبب التقصير، والقلق الذي يهيمن عليهم خوفاً من سوء المصير.

ولقد رأيت في ترجمة سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه أنه رؤي في البيت الحرام متعلقاً بأستار الكعبة في الملتزم، وهو يخاطب الله قائلاً: اللهم إن كنت لا تريد أن تغفر لي ذنوبي يوم القيامة، فأسألك اللهم أن تحشرني أعمى، حتى لا أرى الناس الذين يغترون بظاهري ويحسنون الظن بي اليوم.

إذن فهذا هو الأثر الأول من آثار الحب في مسلك الدعوة إلى الله، وإنه لأثر تربوي كبير، يتحقق تلقّياً في مسلك الدعاة إلى الله، إذا توهجت قلوبهم بوقود الحب لله تعالى. ولا يجادل في هذا الأثر وأهميته أو وجوده إلا من لم يذق فؤاده وهج هذا الحب لمولاه الأجلّ والأوحد، ألا وهو الله عز وجل.

الأثر الثاني من آثار محبة الله عز وجل (وهو يتجلى أكثر ما يتجلى في مسلك الدعاة إلى الله والمعرفين بدينه وشرائعه) الأدب مع عباد الله جميعاً، والشعور بقدر مشترك من الحب لهم.

ولعلك تقول: أما الأدب مع المؤمنين بالله ورسوله، فالسبب الحامل عليه بيّن، ويتبع ذلك ما ينبغي أن يشعر به أحدنا تجاههم من الحب. ولكن ما المسوغ لحب الضالين من الكافرين والملحدين

والذين دأبهم مناصبة المؤمنين بالعداء والعمل على تشويه حقائق الإسلام؟

وأقول في الجواب: إنني أذكِّرك أولاً بما سبق أن أوضحته لك من ضرورة التفريق بين شخص العاصي والمعصية التي تلبَّس بها، أياً كانت من حيث مدى خطورتها.. أما المعصية فيجب الشعور بكراهيتها والتحذير منها والنهي عنها. وأما الشخص الذي تلبس بالمعصية فيجب الشعور بالشفقة عليه، ولا تكون الشفقة إلا نتيجة للحب. فمن لم يكن في قلبك حب له، لا يمكن أن تشعر بالشفقة عليه.

ولعلك تقول: فما الدليل على أن عليَّ أن أشعر بالشفقة عليه؟

والجواب أن الأدلة على ذلك كثيرة؛ منها قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١]. ومما لا شك فيه أنك لن تحب لأخيك ما تحب لنفسك من أسباب الخير والسعادة إلا إن كنت تشعر تجاهه بشيء من الحب الذي تشعر به لنفسك. لأنك بسائق من الحب لنفسك تبحث لها عن الخير وتسعى إلى تحقيقه لها، فإذا كان إيمانك بالله يستدعي أن تحقق لأخيك من الخير ما حققته لنفسك، فذلك يعني أن إيمانك بالله يستدعي أن تمحضه من الحب ما محضته لنفسك.

ومثل هذا الحديث في الدلالة على ما ذكرته لك، قوله ﷺ في الحديث الآخر: «الدين النصيحة». وقد أوضح عليه الصلاة

---

(١) الحديث متفق عليه.

والسلام أن ممن ينبغي أن تتوجه إليهم بالنصيحة أئمة المسلمين وعامتهم. وربما كان في أئمة المسلمين فسقة وعصاة وجانحون عن سبيل الحق، والاحتمال ذاته وارد بالنسبة إلى عامة المسلمين، غير أنهم جميعاً مشمولون بالعموم الوارد في قوله عليه الصلاة والسلام: «ولأئمة المسلمين وعامتهم» وإذا كان توجيه النصح إليهم من الدين، فإن مما لا خلاف فيه أن النصيحة من أولى ثمرات الحب.

ومن الأدلة أيضاً قوله ﷺ في الحديث المذكور، مركزاً على صفة الأخوة، «.. حتى يحب لأخيه..» إن الأمر الموجه إليك من رسول الله ﷺ بأن تحب لأي شخص من الناس ما تحبه لنفسك، معنوناً بوصف الأخ، لا باسم الشخص، يدل على علّية الأخوة لهذا الذي يأمرك به رسول الله، إذ الحكم على المشتق ينبئ عن علية ما منه الاشتقاق، وهي قاعدة معروفة، إذن فالأخوة الإنسانية السارية علاقتها بينك وبين من ثبت له هذا الوصف، هي السبب لهذا. يدعوك رسول الله إلى التحقق به، وهل ثمة ما يثمر مشاعر الحب أكثر من الأخوة؟!

ولا يحملنّك الوهم على أن تقيد كلمة (أخيه) في الحديث المذكور بالإسلام، فتجعل منه قيداً تضيفه إلى حديث رسول الله، بحيث يصبح «حتى يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه» فإن مثل هذا التقييد الفضولي الذي لا دليل عليه من كلام رسول الله، محض افتئات عليه ﷺ.

فهذا الذي ذكّرتك به، مما سبق بيانه، هو الدليل الأول على هذه الثمرة الثانية من ثمرات الحب لله عز وجل.

الدليل الثاني: إن محبة العبد لله تعالى بصدق، تستلزم محبة كل من هو منسوب إلى الله تعالى بنسب العبودية له.

وأنت تعلم أن انتماء الإنسان، أياً كان، بنسب العبودية، إلى الله عز وجل، مناط تكريم له وحفاوة به. وهذا يستدعي أن يكون الصادق في محبته لله، محباً لكل من ينتسبون إلى الله بهذا الانتماء.

ألا ترى أن من أحب شخصاً ما حباً حقيقياً أخذ بمجامع قلبه، يحب كل من، وما، له انتماء إليه أو علاقة به؟ ولا ريب أن من ينكر هذا بلسانه يكذبه شعوره الإنساني عندما يتعلق فؤاده بحب صادق لكائن ما رجلاً أو امرأة.

ألا ترى كيف توهج قلب قيس العامري، بالحب، لكل ما له علاقة بليلاه، حتى ديارها التي كانت تجوب يوماً ما في أنحائها، ألم تسمعه يقول:

أمرّ على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

لعلك تعترض قائلاً: أتقيس حب العبد لله على حب قيس لليلاه أو على حب أي شخص لشخص آخر مثله؟

فاعلم، جواباً عن اعتراضك، أن الحب في جوهره وذاته واحد، أياً كان المحبوب. ومن ثم فإن الآثار التي تستلزمها محبة الإنسان لإنسان مثله، هي الآثار ذاتها التي تستلزمها محبة الإنسان لله عز وجل.

ألا ترى أن من آثار محبة الإنسان لإنسان مثله أن يكثر المحب من ذكر محبوبه، وأن يستريح لذلك؟ فكذلك محبة الإنسان لربه تستدعي الإكثار من ذكره والسكون إلى المجالس التي يذكر فيها الله والارتياح لذلك. ورحم الله ابن الفارض القائل:

أدر ذكر من أهوى ولو بملام
فإن أحاديث الحبيب مُدامي

ألا ترى أن من آثار محبة الإنسان لشخص مثله، أن يطيعه المحب فيما يأمره به ويدعوه إليه؟ فكذلك محبة الإنسان لله عز وجل، من أبرز آثارها الاستجابة لأوامره والتحقق بمجابّه.

ألا ترى أن من آثار محبة الإنسان لإنسان مثله، أن يحب كل من يلوذ به وينتمي إليه ويكون ذا صلة به؟ فكذلك محبته لله عز وجل، من أبرز آثارها ومستلزماتها محبة كل من حدثنا الله عز وجل عن انتسابهم إليه بالعبودية له، وكل من أنبأنا عن خلقه لهم بيده وأنه بث فيهم من روحه.

ثم إنك تعلم أن محبتهم تستلزم الأدب معهم؛ بأن تكون لطيفاً بهم ليّناً معهم، مقدراً أنهم ربما أصبحوا في المآل خيراً منك. وكل

هذا مما دعا الله إليه رسوله محمداً ﷺ، في التعامل مع قومه، سواء المشركين وغيرهم[(١)]، ألم يقل له:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]؟

على أن هذا وذاك لا يتنافى مع ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عند اقتضاء الحال ذلك. بل إن المسارعة إلى ذلك، بحدّ ذاتها، أثر من أهم آثار المحبة لمن تتوجه إليهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللهم إلا أولئك الذين يجعلون من أمرهم الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيحاً لأحقادهم وشفاء لغليل ضغائنهم. فهؤلاء حجة على أنفسهم وليسوا حجة على شرع الله عز وجل.

الدليل الثالث ما نعرفه من معاملة رسول الله ﷺ مع المشركين، بل مع من كانوا يعادونه منهم.

أذكّرك من ذلك بما قاله رسول الله ﷺ يوم رجع من حصاره للطائف، وكان قد حاصرها قرابة عشرين يوماً، جواباً لمن قال له: يا رسول الله ادع الله على ثقيف، فقد رفع يديه قائلاً: اللهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم. وأبى أن يدعو عليهم.

---

(١) حاشا الوصف الثالث للأدب مع الآخرين، فلا يرد في حق رسول الله افتراض أن يصبحوا في المآل خيراً منه. وإنما هو افتراض وارد بل مطلوب في حقنا نحن وأمثالنا مع الآخرين.

وأذكرك بذاك الذي شهر سيف رسول الله المعلق بغصن شجرة كان نائماً في ظلها، وأيقظه قائلاً: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال له: الله. فسرت رعدة في أوصاله وسقط السيف من يده. وبدلاً من أن يقتله رسول الله جزاء عدوانه وإصراره على قتله، عفا عنه، وتركه عائداً إلى مأمنه في قومه، وهو مشرك[١].

وأذكرك بموقفه ﷺ من مشركي مكة يوم دخلها منتصراً فاتحاً. ألم يقل لهم مفاجئاً: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فهل تدل مواقفه ﷺ هذه وأمثالها من المشركين الذين لم يقصروا في معاداته والإساءة إليه، إلا على الرحمة بهم واللطف معهم؟!.. وهل تدل رحمته هذه بهم إلا على ما يكنه من الحب لهم، بقطع النظر عن كراهيته لشركهم وفجورهم؟!..

الأثر الثالث من آثار محبة الإنسان لمولاه وخالقه جل جلاله، أن الحب يحمله على أن يهدر حظ نفسه في سبيل ما يراه من وجوب دعوة الآخرين إلى الله وتعريفهم بدينه. وألا يستثمر شيئاً من أعمال الدعوة لمغانمه ورغائبه الدنيوية.

إن حبه لله عز وجل يدفعه إلى الشعور بأنه خادم لدين الله عز وجل، قائم بوظيفةٍ أقامه الله فيها، هي التعريف بدينه، وتحبيبه إلى قلوب الناس، وبذل كل ما يملك من طاقة معنوية وقدرات

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٥٢ و ٥٣، أقول: وكان ذلك في رجوعه ﷺ من غزوة ذات الرقاع.

وممتلكات مادية، في حراسة دينه وتعبيد السبل أمام الناس إلى معرفته والاهتداء به.

إذن، فمحال أن تجتمع محبة الله تعالى مع استثمار أعمال الدعوة إلى الله للمصالح الشخصية والمغانم المادية.. إنهما، من دون ريب، نقيضان، إن وجد أحدهما غاب الآخر.

والدليل على هذا الذي أقول وأؤكده لك، أن القلب الذي هيمنت محبة الله عليه، لا يبقى فيه متسع للرغبة في تصيّد مزيد من الدنيا وأسبابها، فضلاً عن أن يبحث عن إمكان تصيدها في عمل من أعمال الدعوة الإسلامية.

فإن رأيت من يتخذ من أنشطة أعماله الدعوية، دعامة لمركز يسعى إلى تبوئه أو مصدراً من مصادر رزقه، أو أداة لمغنم سياسي يحلم به ويجاهد في سبيله، فاعلم أن قلبه مشغول عن الله بأحلامه ورغائبه الدنيوية، وإن هو رفع بين الناس شعار الغيرة على الإسلام، وأهداف الدفاع عن شرائعه والعمل على رفع دعائمه وتحكيم موازينه.

وأغلب الظن أن جهود هؤلاء الناس لن تأتي بطائل، وأن حركاتهم الناشطة وألسنتهم المعرفة والداعية، لن تقرب الناس الذين يحاورونهم إلى الالتزام بالدين شروى نقير.

ذلك لأن الذي يدخل قبس الهداية في القلوب، حال الداعي، لا لسانه، وقد ذكرت لك ذلك من قبل. فإن اجتمع مع الحال

اللسان الناطق بالحكمة والموعظة الحسنة، فتلك هي قمة الوصف الذي أثنى الله عليه من حال الداعين إلى الله والمعرفين بدينه.

ألا تلاحظ كيف أثنى الله على هؤلاء الدعاة، مقابل مزيتين اتصفوا بهما، بعد صدق الإيمان بالله والإخلاص في العمل لوجهه، هما الدعوة إلى الله، والعمل الصالح الذي يجسد الحال التي نتحدث عنها، ونلفت النظر إلى أهميتها فقال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣].

وصفوة القول أن من وفقه الله لجعل قلبه وعاء لمحبته، عز وجل، لابد أن يندفع إلى إظهار دلائل حبه له عز وجل، في كل مناسبة وبكل ما يملك. ذلك لأن من دأب لواعج الحب أن يدفع صاحبه إلى إطلاع محبوبه على الحب الذي تكنه مشاعره القلبية له، فهو لا يجد سبيلاً للتخفيف من لظى حبه سوى أن يظهر لمحبوبه دلائل حبه الكبير والحقيقي له، وأجلى الدلائل على ذلك تضحيته بكل ما يملك من راحة وطاقة ومال ومتاع في سبيل حبه، فهو من أجل ذلك يصرّ على أن يخدم دين الله بالتعريف به والدعوة إليه وتحبيبه إلى قلوب التائهين عنه.

ولكي يكمل له الدليل الذي يحب أن يضعه بين يدي الله برهاناً على صدق محبته له، يعرّض نفسه لأسباب التضحية براحته وأمنه وطاقته وفضول ماله وما قد يتبوؤه من رتبة في بلده، وبين قومه أو عشيرته أو أمته.

وانظر، فستجد أن محمداً ﷺ هو أول الدعاة الذين قدموا كل ما يملكون من راحة وطاقة ومال قرباناً لله على طريق الدعوة إلى دينه والتبصير بشريعته وأحكامه، وكشفاً منه ﷺ لربه عز وجل عن صادق وعظيم محبته له، على أن رسول الله يعلم أن مولاه الأجل والأوحد، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه ما يكنه قلبه له من التعظيم والحب.

❁ ❁ ❁

ولكن هل يخلّ بشيء من هذه الآثار الثلاثة التي ذكرتها لك، ما هو مشروع من الجهاد القتالي عند وجود أسبابه؟

سأوجز لك الجواب عن هذا السؤال آملاً أن تعود إلى كتابي (الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه) فستجد فيه التفصيل الوافي بالإجابة عن هذا السؤال وغيره مما يتعلق بهذا الموضوع.

أولاً: لم يشرع الله الجهاد القتالي لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وقد نص البيان الإلهي على هذا في أكثر من موضع. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٨] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/٩٩] وقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] ولا هنا نافية وليست ناهية، فالجملة إذن خبرية وليست إنشائية، والجملة الخبرية لا تخضع لإمكان دخول النسخ عليها.

ثانياً: إنما شرع الجهاد القتالي ردعاً لعدوان واقع، أو رداً لعدوان مخطط له ومتوقع، وما من غزوة قادها رسول الله، أو قادها أي من الخلفاء الراشدين من بعده، إلا وكانت لواحدة من هذين السببين.

ودونك فتأمل في مقدمات كل غزوة تمت في حياة رسول الله ﷺ أو في عهد الخلفاء الراشدين، تجد أنها كانت ردعاً لعدوان واقع أو رداً على عدوان متوقع، والمجال لا يتسع لبيان هذه المقدمات واحدة واحدة مع التفصيل.

ثالثاً: في الوقت الذي نهى الله المسلمين عن موالاة الذين يعادون الإسلام والمسلمين، بمناسبة ما فعله حاطب بن أبي بلتعة من الرسالة التي بعثها سراً إلى مشركي مكة قبيل توجه رسول الله إليها فاتحاً، استدرك البيان الإلهي (إن جاز هذا التعبير) وأوضح للمسلمين أن هذا الذي نهاهم الله عنه، لا يتنافى مع البر الذي ينبغي أن يظل سارياً من المسلمين لغيرهم، ما داموا مسالمين لهم لا يتربصون سوءاً بحياتهم أو بشيء من حقوقهم وأوطانهم فقال:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩].

والفرق بين الموالاة التي ينهى الله عنها للكافرين، والبرّ الذي يأمر به معهم، أن الموالاة تعني الخضوع لنهجهم وسياستهم، وهو منهي عنه في كل من حالتي الحرب والسلم.

وأما البرّ معهم فهو يعني التعامل معهم بالعدل على أساس من النِّدِّية، دون أن يكون للمسلمين أي تبعية لهم أو أن يكون للكافرين أي تسلط عليهم. وهو مأمور به، إن لم يواجههم الكافرون بأي عدوان واقع، أو عدوان يخططون له.

رابعاً: هذا الذي يفرق البيان الإلهي الحكم فيه بين الموالاة التي يحرّمها على المسلمين للكافرين، والبرّ الذي يأمرهم به معهم، ظل منهجاً التزمه الحكام المسلمون، في أعقاب الخلافة الراشدة، فظل أهل الكتاب في بلاد الشام يساوي عددهم عدد المسلمين تقريباً إلى سنوات طويلة، وكان التعايش بينهم وبين المسلمين قائماً في ظل البر الذي أمر به الله. وكان الأقباط في مصر بعد الفتح كذلك، وكان التعايش بينهم وبين المسلمين جارياً على نحو ما أمر الله به من البر والقسط أي العدالة والمساواة.

ولما أقبلت الحملات الصليبية تترا إلى الشام وبيت المقدس، شهد العالم والتاريخ كيف واجه المسلمون والنصارى الصليبيين بالقتال في خندق واحد.

إذن لا يخلّ الجهاد القتالي على النحو الذي شرعه الله، بشيء من هذه الآثار الثلاثة لمحبة الله في أدب الدعوة إلى الله والتعريف بدينه.

الخاتمة

لا ريب أن الحديث عن الحب حديث ذو شجون، لاسيما عندما يكون عن حب العبد لمولاه وخالقه، أو عن حب الله لعباده، ولعلك أدركت هذا من كل ما قد سبق بيانه.

غير أن من الخير، ربما، أن نقف عنان الكتابة والبيان عند هذا الحدّ، فإن الاسترسال في الحديث عن هذا النوع القدسي من الحب، قد يحجب السامع أو المتكلم عن كوابح الفكر والعقل، فيذهب في التجاوب مع مشاعره الوجدانية، إلى أبعد من الحدود التي يرسمها له الشرع من حيث لا يدري، وربما وجد من يتخذ من ذلك ذريعة للدفاع عن أصحاب المنهج العقلاني البعيد، بل المحجوب عن عوامل الحب التي تشكل أزمة السلوك إلى مرضاة الله.

ومن استشرف لهذا الحب القدسي، وجدَّ في التوجه إليه واتخاذ الأسباب التي تحمل على التحقق به، ذاق من ذلك لذة دونها لذّات المتع الدنيوية كلها. ولربما زجته هذه اللذة في حالة من السكر يتيه بسببها عن ذاته وضوابط التعامل والتحاور مع الآخرين.

بل ربما زجته هذه اللذة في عذاب يعاني منه الجسم ولا تشعر به الروح، مما يجعله يسكن إلى عذابه الجسدي منتشياً بنعيمه الروحي. ولربما أوصلته هذه المتعة الروحية التي تحجبه عن عذاب الجسم، أخيراً إلى الهلاك، وكم في المحبين الربانيين من أهلكهم الحب، فراحوا ضحية نشوته الروحية الممزوجة بعذاب الجسم. وبوسعك أن تعلم أن هذا المزيج هو الذي جعل المحبين يؤكدون أن عذوبة الحب كامنة في عذابه.. ولقد عبر عن هذا المعنى ذاته، أو قريب منه ذاك الذي قال:

من لم يذق ظُلم الحبيب كظَلمه[1]

حلواً فقد جهل المحبة وادّعى

وهذا هو قانون الحب وشأنه عندما يكون صادقاً وصافياً عن الشوائب، أياً كان المحبوب. فمن تعرض للحب بصدق لابدّ أن يذوق من عذوبة عذابه. ولربما تودي به عذوبته تلك إن هو ركن إليها إلى القتل.

فإن كنت ممن يبحث عن مذاقه ويركن إلى وهجه، ويستريح إلى عذابه، وإن كنت ترحب بما قد ينالك من ورائه، فاجهد جهدك أن يكون عذابك في سبيل من يستأهل ذلك منك، وإذا كان لابدّ من القتل بدائه، فليكن قتلك في سبيل من يحييك بهذا القتل، لا في سبيل من يذيقك مرارة الندم من جراء ركونك إلى

(١) المراد بالظَّلم بفتح الظاء الرضاب.

حبه، وما أعذب ما يقوله سلطان العاشقين ابن الفارض، في هذا الصدد:

ولقد أقول لمن تحرش بالهوى
عرضت نفسك للبلا فاستهدف

أنت القتيل بأي من أحببته
فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

إن من الغلو الباعث على الخسران، أن تستسلم لصواعق الحب، وعوارضه المهلكة، في سبيل من لا يملك أن يجزيك أجر هلاكك بحبه، وإنما يملك أن يذيقك لقاء حبك له كؤوساً من مرارة الندم.

وإن من الحق الباعث على السعادة والحياة الطيبة الخالدة، أن تقدم حياتك قرباناً لحب من أورثك إياها، إنك ستمنحها له بيمين حبك، وستستردها ممتَّعة بأعلى درجات السعادة، من يمين فضله وإحسانه إليك.

إذن، لا يتأتى الغلو، ولا يتصور معناه في محبة الله. ويخطئ خطأ عجيباً من يرسم لمحبة العبد لمولاه وخالقه حداً، ثم يحذره من أن يتجاوزه. إن هذا الوهم يعني أن لمظاهر إنعام الله وإحسانه إلى الإنسان حداً لا تتجاوزه، ومن ثم فإن ما يستأهله الله من الحب لقاء ذلك الإحسان والإنعام، هو الآخر ينبغي أن يكون محدوداً بقدر ذلك الإنعام.

فهل من عاقل عرف ربه وأدرك فضله يتورط في هذا الخطأ العجيب؟

نعم، ينبغي للعبد أن يحاذر طغيان محبته لله على إدراكه العقلي لشرائع الله، كي لا يتيه عن الالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه في حق نفسه، ولكي يتأتى له تبليغ شرائعه وبيان أحكامه لمن حوله من الناس الذين هم بحاجة إلى من يعرفهم بعقائد الدين وأحكامه.

ولقد كان في دمشق إلى ما قبل سنوات رجل من الصالحين الذين جذبتهم محبة الله إلى العزلة عن الناس، والغيبوبة عن النظر في أحوالهم ومعايشهم وعن إمكان محاورتهم والتعامل معهم. فأذكر أنه زار والدي - رحمهما الله - في إحدى الأمسيات، ولما اطمأن به المجلس أخذ يتحدث من وحي حاله وأشواقه ومشاعره الخاصة به وراح والدي يصغي إليه بأدب جم، وكأنه مريد تربى على إرشاده وتهذيبه. ولما قام ليمضي ودعته وقلت له: ادع الله لي أن يكرمني بمثل ما أكرمك به. فقال لي: ما حاجتك إلى هذا الدعاء؟ إذن لن تجد في الناس من يفهم عنك.

لقد أراد أن يفهمني أنه معذور للجاذب الوجداني الذي هيمن عليه، وأذاقه من التعلق بالله كأساً لا يصحو من لذعها ونشوتها، أما أنا وأمثالي، فينبغي أن أركن إلى الصحو الذي أتمتع به، كي أستبين به أحكام الشرائع، وكي أبلغ في ضوئه رسالة الإسلام: عقائده وأحكامه إلى الناس.

وإنها لمن النصائح النادرة التي يوجهها المغمورون بعوامل الجذب، إلى المتمتعين ببصيرة الصحو.

❀ ❀ ❀

أحسب أنني بهذا الذي أقوله في ختام هذا البحث، أطمح إلى مستوى باسق لم أبلغه لا أنا ولا أنت، وأصف شراباً لم نتهيأ بعد للتضلع منه.

لذا، وريثما يكرمني الله وإياك بذلك الحب الذي يزجني وإياك في وقوده، ويمتعني وإياك بعذوبة عذابه، أذكر نفسي وإياك بأن نجعل وقود سيرنا في رحلتنا إلى الله وهجاً من حبنا له، كي لا تقطّعنا عن السير إليه جواذب الأهواء ورغائب نفوسنا الأمارة بالسوء.

ولا يتم هذا إلا بأن نحيي قلوبنا بالإكثار من ذكره، وبالاستغراق في ملاحظة ألطافه ونعمه. فإن نحن وُفقنا لهذا تقلصت عن أفئدتنا محبة الدنيا بكل ما فيها من منسيات وملهيات، وتغلب سلطان المحبة الإلهية، وبذلك يتيسر لنا الصبر على المكاره إرضاء لمحبوبنا الأول، ويسهل علينا تحمل المشاق توصلاً بذلك إلى حبه لنا وللمزيد من إحسانه إلينا. وبذلك أيضاً تزدهر نعمة الإخلاص لله عز وجل في عباداتنا وسائر طاعاتنا، وبذلك تغدو مسالك دعوتنا إلى الله والتعريف بدينه موصولة بالقبول ومنتهية إلى أعماق المشاعر والنفوس.

كما أذكرك، وأذكر نفسي، بأن نجعل من الحب في الله شبكة اتصال بيننا وبين عباد الله جميعاً، تترجمها للطائعين منهم مشاعر التبجيل والتوقير لهم، وتترجمها للعصاة منهم مشاعر الشفقة عليهم والرأفة بهم. وبذلك نسلك النهج الذي سار عليه سيدنا رسول الله في معاملته لعباد الله جميعاً.

ثم إني أذكرك، وأذكر نفسي بأن نجعل من عبوديتنا الضارعة لله الجناح الثاني إلى جانب جناح الحب، في صعودنا إلى مستوى الالتزام بشرعه، لا نضيّق منه واسعاً، ولا نتأول منه بياناً صريحاً وقاطعاً، ولا نميل عنه إلى هوى ولا نؤثر عليه مصلحة موهومة.. ولا نزيغ عن الدعوة إلى الحكم به، إلى أي بديل عنه، مما يسمى العلمانية، أو يعبر عنه بالحكم المدني.. فلا والله، لن يستبدل بحكم الله نظاماً لمجتمع، غيرَه، مما يطلَق عليه هذا الاسم أو ذاك، إلا من آثر الظلم على العدل، وآثر التهارج على انتشار المودة والأمن.

وما عجبت لشيء كعجبي ممن يرى أن الإسلام توءم الديانة اليهودية الإسرائيلية فيكرر قائلاً: لما كانت عنصرية إسرائيل وعدوانيتها نابعتين من دولتها الدينية، إذن يجب أن نتقي الوقوع في مثل تلك العنصرية والعدوانية فلا نقيم نحن المسلمين دولتنا على النظام الإسلامي!.. لأن الدولة التي تقوم على الإسلام لابدّ أن تؤول إلى مثل ما آلت إليه إسرائيل من العنصرية والعدوانية على الآخرين!!..

فهل من مسلم عرف الإسلام فآمن به، يرى أن نظامه الذي أقامه الله حَكَماً بين عباده، يقودهم إلى العنصرية والأعمال العدوانية؟!..

على أن إسرائيل علمانية وليست دينية في أحكامها ونظامها، وإن كانت تستعين بالراديكاليين الدينيين والأحقاد الدينية التي تفيض بها نفسهم، لخططها العدوانية وأهدافها التوسعية.

فهل المطلوب منا نحن المسلمين أن نتبعها في علمانيتها؟ أم المطلوب في نظر من يحسبها دولة دينية، وأن دينها المختلق نسخة عن الإسلام نفسه، أن نخالفها في دينية حكمها، فنقيم دُوَلنا على الأسس والأنظمة المدنية، لا الإسلامية؟ تجنباً للظلم الذي أوغلت فيه إسرائيل، وتحقيقاً للعدالة التي لا تزدهر إلا من خلال الحكم المدني؟!

ثم أذكر القارئ وأذكر نفسي أيضاً، بأن علينا إن عجزنا، لسبب ما، عن تنفيذ أوامر الله وأحكامه، إن في حق أنفسنا أو في حق مجتمعاتنا، أن نعترف بتقصيرنا، وبتغلب الأهواء أو العوامل الخارجية علينا، فإن ذلك أدعى إلى أن يصفح الله عنا صفحه الجميل وأن يغفر لنا سوءنا وتقصيرنا، وبأن نتجنب تسويغ تقصيرنا ولا نفلسف انحرافاتنا ونبحث عن المؤيدات والمخارج لها؛ فإن الاعتداد بالمعصية والبحث عن المسوغات لها، أسوأ عاقبة من المعصية ذاتها.

كم من موغل في المعاصي أدركته مغفرة الله، إذ كان معترفاً بعصيانه وسوء حاله، يلتمس من الله الصفح عنه والمغفرة له..

ولكني لا أعلم أن في العصاة عاصياً رحل إلى الله وهو معتز بعصيانه، منكر لتهمة أي خطيئة تلصق به، فغفر الله له استكباره وتجاوز عن عناده. أجل.. لا أعلم أن في المستكبرين بمعاصيهم من صفح الله عنهم مخالفاً قراره المؤكد في قرآنه.

❁ ❁ ❁

أخيراً أقول: لقد بدأتُ رحلة الكتابة والفكر في حياتي بالحب، وها أنا ذا أختمها، على ما يبدو، بالحب!..

كان حديثي في بداية رحلتي هذه عن حب الإنسان للصور والأشكال وما فعله ذلك الحب في حياة كثير من الناس، وما فعله في صدر حياتيَ، بي، أيضاً.

وها أنا ذا، في خواتيم هذه الرحلة، أعود إلى الحديث عن الحب. ولكنه اليوم حديث عن الحب كما هو في القرآن، إنه حديث عن معين الحب، ومن يؤول إليه الحب.. ومعين الحب مصدره ومستحقه، ألا وهو الله عز وجل..، ومرجع الحب ومن يؤول إليه هو الله عز وجل.

وبين كل من المصدر والمآل، يتيه كثير من الناس بين الصور والأشكال. وإن كل ما قصدت إليه مما ذكرته في هذا الكتاب ألا نتيه - ونحن نتعامل مع كل من مصدر الحب ومآله - بين الصور والأشكال.

ألا ولتعلم أن الصور والأشكال مجرد نعم، وإنما الذي يستحق الحب، المنعم الذي تفضّل بها، لا النعم التي نتمتع بها.

ألا ولتعلم أنك مفارق للصور والأشكال كلها، وإنما الذي يبقى لك، وتبقى معه، وتؤول إليه، هو الله الذي أبدع الصور والأشكال ومتعك بها.

فاجعل حبك لمن علّمك ممارسة الحب، وأورثك ما تتمتع به. واعلم أن أجلَّ ما تتمتع به اليوم، معرفته والدينونة بالعبودية له، وأجلّ ما ستتمتع به غداً، لقاؤه والنظر إلى وجهه.

فاحرص على ألا تحرم نفسك من نعيم معرفته اليوم ومن نعيم رؤيته والنظر إلى وجهه الكريم غداً.

ألا وإن الغد مقبل وهو لناظره قريب.

والحمد لله ربِّ العالمين.

شاء الله تعالى أن تكون خواتيم هذا الكتاب في منتجع حمامات قزلجه التابعة لأنقره في صباح يوم الجمعة الواقع في ١٨ رجب ١٤٣٠ الموافق لـ ١٠ تموز ٢٠٠٩م.

مستخلص

كتاب يفصّل في موضوع الحب الذي يتناوله القرآن الكريم، ويتحدث عن آثاره في حياة الإنسان.

قسم المؤلف كتابه إلى قسمين كما جاء في العنوان؛ **القسم الأول** ((الحب في القرآن))، وضمّنه ثلاثة بحوث؛ الأول ((محبة الله للإنسان))، قدّم له بمقدمة، وعرّف فيه بالحب، وتحدث عن مصير محبة الله لجنس الإنسان. والثاني ((محبة الإنسان لله)) وأشار فيه إلى حديث القرآن عن الحب القديم من الإنسان لله، وعن الحب الكسبي من الإنسان لله كذلك. وتوقف عند هذا النوع من الحب، وعند السبل المؤدية إليه والثمرة التي يحققها المرء في حبه لربه الذي عدّه المؤلف غاية وليس وسيلة، وأنه ليس من مستلزماته عدم الوقوع في المعاصي. والثالث ((محبة الإنسان للإنسان)) وبحث المؤلف فيه عن وجه التنسيق بين ما قضى الله به من حب الأغيار، وما دعا إليه من الترفع عن حبهم، ورأى أن حب الإنسان لأخيه الإنسان ثمرة لحب الله تعالى.

أما القسم الثاني من الكتاب ((دور الحب في حياة الإنسان)) فقد تناول فيه ثنائية تركيب الإنسان من الروح والجسد، وأثر ذلك في عواطفه، كما بحث في أثر كلٍّ من الحافز العقلي والعاطفي في حياة الإنسان، وذكر أن العقل مصدر الإيمان، وأن الحب مصدر الالتزام. وتحدث عن ضرر الاعتماد على العقل وحده، وعلى الحب وحده. وختم هذا القسم بالحديث عن دور الحب في أعمال الدعاة الذين يعرّفون بالإسلام، وأثر من تحلى بالحب الصادق منهم في نجاحه وقيامه بمهامه خير قيام.

ثم ختم المؤلف كتابه بكلمات عذبة عن حب الله.